المُخلص

أرض النور

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب : المُخلص أرض النور
تأليف : باسم زكي
تصنيف الكتاب : رواية
تدقيق لغوي: يارا المصري
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٧٢٤٤ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 62 - 5

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

المُخلص

أرض النور

رواية

باسم زكي

إهداء

إلى كُل من أُصابتهم ظُلمات اليأس و اتهامات الفشل حتى أظلم العالم أمام أعيُنهم أُهديكم عملي هذا،..

لقد خططتهُ وأنا بأعمق حفر اليأس وأشدها ظُلمة، كان دومًا هنالك نورًا يُشع بداخلي أرهُ وأسمعه يهتف ليّ دائمًا بأن انهض ولا تستسلم فأنت تستطيع النهوض من جحيم اليأس والخوف و الفشل والصعود تجاه قمة الأمل

فأنت تستحق النور لا الظلام فكانت روايتي تلك ليّ ولكم؛

بين أوراقها تجدون شخوصكم ومخاوفكم وأحلامكم وبها تكتشفون المُخلص بداخل كُل واحدٍ منكم،..

حاربوا الظلام حولكم بالنور داخلكم، كُليّ يقين أن بداخل كُل شخصٍ منكم مُخلص يستطيع مُحاربة ظُلم وظُلمات هذا الكون المُحتضر وبناء عالمٌ من النور؛

أطلقوا العنان للمُخلص بداخلكم وشيدوا أرض خلاصكم بأيديكُم.

***

المُخلص أرض النور

«في زمنٍ غير معلوم يسيطر فيه الظلام والظُلم على الكون قد تظن أن الجميع هالك، فيخيبُ ظنك بأن دومًا هُنالك ناجيٌّ؛ فإذا امتلك هذا الناجيّ القوة والزمن فهل سَيُغير ذلك الأحداث والنهايات؟!»

***

-١-

«الباحث عليه التحلي بالصبر حتى ينال جائزته من المعرفة، فالمعرفة الحقيقة يلزمها صبرٌ أما العجلة فلا تجني إلا المغالطات وصورٌ مشوشة»

.. مستعمرة العجوز ..
.. معركة النور ..
.. روفان ..

تَسربتْ البرودة إلى أطرافها فأصابتها رعشةٍ خفيفةٍ وهي تُراقب السماء في صمتٍ كعادتها،..

لم تكُن تلك البرودة القاتلة ولا الظلام الدامس أقوى من البرودة والظلامِ في قلب تلك العجوز و وروحها، أسرعت حفيدتها خطواتها صعودًا وهي تحتضن جذوع الشجر الميتة لتلحق بمجلس جدتها، وصلت أخيرًا إليها فألقت الحطب وأشعلت النيران به تَلتهمه لينبعث من الحطب المُشتعل النور والدفء لها ولجدتها على سقف منزلهم، اتجهت للجلوس إلى جوارها في صمت بينما انشغلت جدتها في مُراقبة ظلامُ السماء،..

بدت ملامحها فور جلوس حفيدتها لجوارها تتغير فبدت أكثر دفئًا ولم تفهم حفيدتها يومًا سر هذا التغيُر أهو من دفئ النيران المُشتعلة أم من دفئ وجودها فهي على يقين من ولعها بها أم كليهُما معًا،

لم تُبدي الجدة أي حركة وظلت على حالها تُفتش بكُل طاقتها عن أي ظهورٍ مُحتمل للقمر ولو ضعيفًا بلا جدوى، لم يُشتت صمتها صرخات الحيوانات والبشر التي تشُق صمتُ الليل المُظلم بمُستعمرتهم، فلقد اعتاد الجميع سماع تلك الأصوات ليلاً فور أن يحلَ الظلام الدامس..

لا يُمكن لأحد فتح بوابة المُستعمرة أو حتى فتح باب منزله، لم يتجرأ أحدًا في مُستعمرةّ العجوز بأكملها على الصعود لأسقُف منازلهم فور حلول الليل إلا (زهرة) تلك المرأة القوية التي شاهدت نور الشمس والنهار في طفولتها البعيدة،..

لم تكُن تخشى وحوش السماء المُحلقة بحثًا عن فريسة لافتراسها فكانت النار المُشتعلة تكفيها شر تلك الوحوش وشرَّ البرودةَّ القارصة التي قد تقتُلها، لا تخشى الظلام الليلي الدامس ولا ظلام الصباح الخريفي، تلك العجوز لم تكون تخشى شيئًا على الإطلاق،..

كانت تقضي ليلها وحدها فلم تكون وحيدتها (جوري) تملك نفس قدرها من القوةِ والشجاعةِ، ولا حتى زوجها (مهاب) رغم بأسه وقوته وبنيته القوية لم يملكْ جرأتها، ظلت وحيدةًّ في جلساتها الليلية حتى أشرقتْ شمس تلك العجوز بولادة حفيدتها (روفان)، تلك الفتاة اللطيفة الجميلة ذات الأعينُ الزرقاء بابتسامتها النضرة كانت تُشبه جدتها تمامًا، تعلق الثنائي المُتشابه ببعضهما فلم يكون

أحدهما يفارق الآخر، كانت الطفلة تصرُخ كُلما حاولت أمها أو أبيها منعها الصعود مع جدتها ليلاً، فتبكي بحُرقة ولا تتوقف حتى تحملها جدتها وتضُمها إلى صدرها فيصعدا يُراقبا السماء المظلمة، حتى ظن كُل من بالمُستعمرة أن (زهرة) وحفيدتها مسهم جنون وسحر الظلام،..

صمتهما وشرودهما في نظرهما للسماء نهارًا وليلاً كان غريبًا، كان كلتيهما كمن يرى شيئًا لا يراه الجميع بالمُستعمرة، وكُلما سئل أحدهم (زهرة) كانت تؤكد أنها تُراقب ومضات النور فيومًا ما سوف تستمر ويحل النور والسلام في الكون من جديد!، ..

كان قد تبدل الكون تمامًا غابت عنه الفصول الثلاثة ولم يبقى سوى خريف مُمتد بلا نهاية، فأصبح النهار غائمٌ للغاية لا شمس فيه تغلُبه الرياح باختلاف درجات قوتها، تحملُبقايا الأوراق الميتة للأشجار المُحتضرة، وأمسى الليلُ دامسَ الظلام لا قمر فيه ولا أثر للنجوم ولا السُحب تغلُبه البرودة القارصة، بدأ الكون الاحتضار فجأة، أغلب المُعمرين مات أو قتل ولم يبقى أحدًا من الذين شاهدوا الشمس المزعومة حيًا،.. فجميع من يحيا خارج (أرض الخلاص) لم يرى النور إلا طفلاً صغيرًا كحال (زهرة) العجوز والتي لا تتذكر سبب خفوت الشمس واختفاء القمر وامتداد هذا الخريف المقيت!،

لكن الجميع كان يرى (الومضات) التي تأتي كُل حينٍ فجأة وبلا سابق إنذار تنقشع الغمة ويتبدد الظلام وتنكشف السماء للحظات!،

تُعيد الأمل في الأنفُس التي نهشها اليأس من الحياة، تُعلن أن النور حقيقي وأنه ليس أُسطورةً وهو حقٌ للجميع وليس حكرًا على أرض الخلاص، فتتراقص القلوبُ فرحًا وتُلتقط الأنفاس برضا وتصرُخ الحناجر بالأقسام بإخلاصها الحفاظ على الكون والنور إن عاد

ولكن الكون لم تُنعشه الأقسام و النور لم يعود رغم صدق بعض العهود!، فسُرعان ما تختفي الومضات ويعود وحش اليأس ينهش أنفُس البشر، يُمزق قلوبهم ويعبث بأفكارهم مؤكداً لهم أنهم هالكون لا أمل لهم وما هُم إلا خدمٌ لملوك الظلام الذين يحكمون المُستعمرات ويستعبدون البشر بأعمالٍ مُضنية مثل الصيد في البحار المُظلمة لجلب الأسماك أو صيد الحيوانات في الغابات الميتة أو جمع ثمار قليلة للغاية تكاد تكون أشجارها عقيمةً لا تلد زرعًا من الغابات المُحتضرة، أو بناء الأسوار أو صناعةّ الحِراب و الدروع والأسلحة وبناء السُفن من الأشجار بعد قطعها من الغابات...

في كُل تلك الأعمال أنت وحدك مسئولاً عن حياتك في مواجهة وحوش السماء المُحلقة بحثًا عن فريسة أو وحوش البحر والغابات الجائعة...

أو حتى رجال الأمن الذين ينتشر الحديث عن أكلهم لحوم البشر!، وقع البشر بين شقي الرحى من ناحيةٍ ملوك الظلام وفسادهم وظُلمهم ومن الجهةّ الأخرَى الخريف الذي أصاب الكون فأنهض وحوش الأرض لهثً لإسكات جوعهم..

كان هذا في بادئ عهد خريف الظلام الذي نشأت منه ممالك، كل مملكة لها ملك زعيمًا لمجموعة من المستعمرات قبل أن يُنصبَ كُل واحدٍ منهم نفسهُ ملكًا على مملكة يسلب البشر فيها حريتهم ويستعبدهم، جاهد كُل واحد منهم توسعةّ مملكته فأمست كُل مملكة تضُم عددًا كبيرًا من المُستعمرات وتلك المُستعمرات تضُم عشرات العائلات...

ساد الظلام بغياب الشمس فأظلمت الأرواح وعمت القسوة مع امتداد خريف الأرض فاستوحشت الأنفُس، وغاب عن الليل القمر وماتت النجوم فأمسى كُل شيئًا يُنذر بأن الموت قادم وأن الأرض تلفظُ أنفاسها الأخيرة وهي تحتضر مُندفعةً إلى الهلاك،

حتى بزغ نجمهُ يُبشر بعودة الحياة، هو من لا يوقفه زمان ولا يمنعه مكان، قائدٌ عظيم نهض من قاع الهلاك لإحياء الأمل والنور

في القلوب الميتة يُبدد ظُلمتها، يقود (أرض النور) وشعبها تجاه الحُرية من استعباد الظلام وملوكه ويُنجي الكون من الهلاك، اتحدت ضده ممالك الجشع المُنتفعة من الظلام واستعباد البشر، هو (المُخلص)

اندفع اسمهُ يشُق السكوت على الظُلم ويُبدد بنوره (أرض النور) التي أنشأتها ظُلمات الكون، بدأت تترد أخباره وأخبار مملكته عن طريق (المُبشرين)..

والمبشرون هم آلات حرب مُلثمين يحمل الواحدُ منهم سيفان غريبان لم نرَ مثلهم قط تحت درعه الصلب الذي تتكسر عليه أسلحة رجال الأمن دون أن تجتازه!...

الواحد منهم قادر على الفتك بمجموعة من رجال الأمن في لحظات دون أن يشعر به أحد!، انتشروا في الغابات والبحار وعلى حدود أغلب ممالك الظلام، يُبشرون ب(أرض الخلاص) التي أنشاها المُخلص..

أرضٌ ترى شعاع الشمس ونورها والقمر والنجوم والسُحب !، بل تسقُط عليها الأمطار أيضًا وينبُت بها الزرع والأشجار الخضراء!، زادوا من خرافاتهم التي لم تراه عين وهم يصفون كائنات جميلة تُحلق بالسماء وأخرى يركبونها!..

يتحدثون عن طعامٌ لذيذ وأمنٌ دائم للجميع!، كُل ما عليك فعلهُ هو إتباع المُبشرين لتحصُل على خلاصك وتحجز موقعك في أرض النور، هرب الكثيرون خارج أسوار ممالك الظلام بحثًا عن الحياة والأمل، فشدد الأمن إحكامه على حدود الممالك والمُستعمرات وتوعد بالقتل كل من يتورط في محاولة الهرب! وليس وحده إن قُبض عليه بل عائلته بالكامل..

لقد أصاب المُخلص كبد عالمهم المظلم بضربةً واحدة فهو يسلب ممالك الظلام أبقارهم الحلوب التي تُعطيهم ألبانها مجانًا دون أن تتسخ أياديهم بأي محاولةً منهم للبحث عن الطعام أو الحطب للتدفئة..

استمر هذا الحال البائس الجميع يُحيطه الموت تحت حُكم ممالك الظلام أخف ألمٌ من ما يعيشه الكون الآن، فلم تتقبل ممالك الظلام المُخلص وما يُقدمه للبشر من أمل، سعى رجال الأمن والمُفتشين بحثًا عن (أرض النور) دون جدوى، قُتل المئات بل الآلاف من رجال الأمن على يد (المبشرين) و (حراس النور) في تلك المحاولات البائسة للوصول لأرض الخلاص، حتى ظهرت (سيلا) تلك المُبشرة والحارسة من أرض النور تُعلن العصيان على المُخلص!..

وصلتْ إلى ملك الجبال السوداء تعرض عليه قيادة جنود ممالك الظلام وإرشادهم إلى (أرض النور) مُقابل مساعدتهم لها قتل المخلص!، نُسجت العديد من الأساطير حول سبب خيانتها فلم يقتنع أحد إلا بسببٍ واحد أنها أحبته بجنون ولم تلقى منهُ الحُب، وحدها الصدمة في المحبِ قد تدفعك لتدميره وتدمير نفسك بل الكون بأكمله..

أُطلقت الأبواق تنعق بالشر تحشدُ ممالك الجشع والظُلام وجنودهم تجاه مملكة الشمال تلبيةً لدعوةّ ملكها، حُشرت أغلبُ الجنود فلم يبقى إلا القليل في بعض المُستعمرات الغنية مثل مُستعمرة العجوز، أغنى المُستعمرات هي التي تُطل على نبعُ ماء أو بئرٌ و على مقربةً من بحرٍ، فبتلك المُستعمرات الغنية يؤمن بها مصدرٌ لماء الشرب والسمكُ للأكل، ورُغم ذلك لم يبقى أكثر من ثلاثة جنود على أقصى تقدير في تلك المُستعمرات، فأبواق المعركة كانت تُعلن الحشد للجميع بلا توقف ولا انقطاع،حُشرت الجنود من مملكة الشرق ويُطلق عليها(مملكة الرمال) يقودها ملكهم وملك الجنوب ويُطلق على مملكته (الغابات المظلمة) و (نهاش) ملك الغرب ومملكته هي (الجبال البيضاء) والذي تتبعه مستعمرة العجوز..

حُشرت جنود الظلام بدروعها الخشبية المُتقنة ورماحهم يأملون الظفر بالمُخلص والفوز بتلك الأرض بثرائها الفاحش،

حُشر الجميع إلى مملكة الشمال بحُضن الجبال السوداء فكانت مُفاجأة الملوك والجنود على يد (سيلا) بأول اجتماعهم معها!، كان ذلك هو ما سردته (زهرة) لحفيدتها على مدار أسبوعًا كامل على أمل إكمال باقي القصة لها كُل يومًا قدر ما يسعهما الوقت قبل أن يغلُبهما النُعاس..

لم تملك (روفان) جرأة قطع لحظات التأمل على جدتها وانتزاع الكلمات من فمها، فهي على يقين بأن جدتها لن تنطق بكلمة إلا إذا أرادت كما تعلم أن ما لدى جدتها لا يملكهُ أحد من أهل المستعمرة، فوجب عليها دائمًا التحلي بالصبر حتى تنال جائزتها من المعرفة، فالمعرفة الحقيقة يلزمها صبرٌ أما العجلة فلا تجني إلا المغالطات وصورٌ مشوشة لم تكون لتقبلها تلك الفتاة القوية، كسرت أخيرًا صمتها وتحدثت إلى حفيدتها وهي تنظُر للسماء:

ـ ألم تُلاحظي أن ومضات الأمل لم تظهر مُنذُ ثلاثة ليالي أم أني أخطأت الحساب ؟! .

رفعت حفيدتها رأسها للسماء وأجابتها بحُزن :

ـ لا يا جدتي لم تُخطئي، لكن هذا الغياب تكرر كثيرًا فما الغريب فيه الآن ؟! .

ـ هذا الغياب يا ابنتي يعني أن الموعد اقترب .

أجابتها مُندهشة :

ـ أي موعد هذا الذي تتحدثين عنهُ ؟! .

نظرت لها بحنين وأسى وهي تمسح بكفها الرقيق على وجنةّ حفيدتها :

ـ موعد رحيلكِ لأرض النور .

تهللت أسارير روفان ابنة الثلاثة عشر خريفًا وسألت في نهم للمعرفة:

ـ هل سوف أرحل لأرض الخلاص؟، متى إذًا أرحل وكيف ؟! .

ابتسمت لها وأجابتها بنبرةً هادئة تُشبه هدوئها الدائم :

ـ قريبًا، الآن عليّ أن أُكمل لكِ باقي قصة المخلص، أين توقفنا ؟ .

اشتعل الحماس بداخل روفان وأجابتها بشغفٍ للمعرفة :

ـ عند مُفاجأة (سيلا) لملوك الظلام بمملكة الجبال السوداء قبل معركة النور .

هزت رأسها قبولاً وإعجاباً بذاكرة حفيدتها القوية واهتمامها بأدق تفاصيل حديثها،

شخصت عيناها بالسماء لحظةً كأنما تترجى ومضة الأمل أن تصدُر لتُعينها على الظلام لتُصيب الحسرةَّ نفسها لفشل رجائها، أومأت رأسها أسفًا وعادت لسردها،

زحفت جيوش الحقد يقودهم ملوك الكراهية تحت غمامةّ الخريف الذي لا تنقشع ظُلماته ليلاً ولا نهارًا حتى استقرت بأرض الجبال السوداء تستقبلهم حُراسها على أبوابها، تلك المملكة تُحددها عدةّ جبال فأمر (بوان) ملك تلك المملكة بتشييد سورًا يربط بين الجبال وبعضها فأمست المملكة مُحصنة بالجبال وأسوارها، يقع خلفها وأمامها البحر وترتبط بالأرض من بوابتها الغربية والشرقية فقط، تقدم (نهاش) بجنوده من البوابة الغربية وحده فتلك البوابة لا وصول لها إلا من الغرب ونهاش وحده من يملكُ أرضه وحق المرور فيها...

بينما وصل من بوابة الشرق (هولا) ملك مملكة الرمال بصُحبته (شاكو) ملك الغابات المُظلمة الذي زحف بجنوده تجاهه فهم على علاقةً وطيدة ليمُر بجنوده من أرضه، تلاقت الحشود في ليلةً دامسةّ الظلام تُشبه أيام الأرض ولياليها الطويلة..

مرت الملوك وجنودهم عبر البوابات إلى ساحة الجبل الأسود بقلب المملكة ليُعسكر فيها الجنود تحت أضواء المشاعل النارية، تحرك الملوك الثلاثة إلى قاعة الجبل، هي مقر حُكم (بوان) وهي من الحجر يحتل قلبها العرش الحجري للملك و تتزين بتُحف صُنعت من الأشجار بيد المطحونين من شعب مملكته، وأنشأ بوان ثلاثة عروش خشبية وضعت أمام عرشه الحجري بشكل نصف دائرة برحبة متوسطة تفصل بين العروش الأربعة، استقبل بوان الملوك الثلاثة

بحفاوة وترحاب شديد وقدم لهم مأدُبة الطعام وكان غزالاً صاده أحد أبرع جنود بوان من فك وحشٍ على حدود المملكة الغربية، ليحتل قلب مأدُبة أشر أهل الأرض وأكثرهم ظُلمًا، بدأ الحديث (نهاش) بسُخريته وجشعه المعهود موجهًا حديثهُ لبوان :

ـ هذا الغزال لا ينتشر إلا بالجبال البيضاء فيبدو أن كرمك البالغ من ممتلكاتي يا صديقي.

أجابه (بوان) بحزم :

ـ اترك السخرية الآن ولنتناقش حول ما احتشدنا من أجله .

اشتبك (هولا) بقوة في الحديث بقوله :

ـ نعم فلم نحتشد بجيوشنا من أجل الحديث عن غزال نهاش أو ماء بوان، الآن يجب أن نُقسم المكاسب التي سوف تعود علينا بعد الظفر بالمُخلص وأرضه، أنا وشاكو كما تعلمون لا نحتاج للأرض فهي خالصةً لكم لكننا نحتاج تأمينكم لنا الماء والطعام .

أجابه (بوان) بقوة :

ـ أعلم ذلك وهم لكم والأرض وشعبها وثرواتها سوف نتقاسمها أنا و نهاش؛ الآن يجب أن نُنسق للمعركة فالحرب مع المُخلص سوف تكون صعبة للغاية ولكن سلاحنا فيها هو المباغتة وذلك عن طريق مُساعدته (سيلا) التي سوف تُقابلكم خلال دقائق .

خرجت كلمات نهاش حاقدة مثل روحه :

ـ سوف يكون لنا حديث بعد المعركة عن المكاسب أما سيلا تلك فهل هي جميلة ؟! .

كان الجميع يعلمٍ ولع (نهاش) بالنساء وجنونه بهن، فأجابه (بوان) بحزم مُحذرا :

ـ إن كُنت تسأل عن جمالها فسوف أستفز شبقك وولعك بالنساء أنها أجمل ما رأت عيني؛ ولكنِ أُحذرك مُحاولة الاقتراب منها ولو للحظة فهي سوف تقطع عنقك بضربةٍ واحدة فلا تظن أنها فتاةٌ ضعيفة يقودها جنودك لتدخلها فراشك مُستسلمة، تلك الفتاة سوف تذبح جنودك وتغسل فراشك بدمائك، فابتعد عنها أفضل لك ولنا .

كانت كلمات بوان قوية لا تحتمل الشك وبدا أن الملوك الأربعة تفهموا خطورة التلاعب بتلك الفتاة، لحظات وبدأت تخطو تجاههم أقدام (سيلا) تلك الفتاة الجميلة، ترتدي درعها الذهبي ووبنطالها الأسود المرن يتدلى من خصرها حزامٌ يحملٍ سيفان، طويلة القامةّ لها شعراً طويلاً يصلٍ لنصف ظهره، وجه بيضاوي وبشرةٌ خمرية، أعينٌ مُتسعة ووجهاً مُشرق يحملٍ ملامح الحزم والقوة بقدر ما يحمل الجمال؛ تقدمت لتقف في منتصف الرحبة بين العروش الأربعة، اندفع الحُراس خلف عرش (بوان)

رغم يقينهم أنهم لن يستطيعوا حماية أنفسهم إن أرادت قتلهم أو قتله، نظرت لهم وهي تدور حول نفسها حتى توقفت بنظرها ل بوان ووجهت حديثها له :

ـ إذاً هؤلاء هم ملوك الأرض وحكامها ؟!، حقًا الأرض التي يملكها ملوكًا مثلكم تستحق الهلاك والخريف المظلم فبئس الملوك والحكام أنتم .

صرخ من خلفها (شاكو) بغضب :

ـ هل أتينا إلى هُنا بجيوشنا لنسمع إهانتنا على لسان تلك الحقيرة؟! .

نظرت إليه خلفها باحتقار وعادت لنظرها وحديثها إلى بوان :

ـ انتم وجنودكم تستحقون الشفقة، تتقاسمون غنيمة معركة لن تكسبوها مُطلقًا طالما هذا هو حالكم و حال جنودكم .

أجابها بوان بقلق :

ـ إذاً أخبرينا كيف لنا أن نكسب تلك المعركة والجميع وافق على مطلبك برأس المخلص لكِ وحدك، عليكِ مساعدتنا حتى تنالي مُرادك وننال مُرادنا .

أشارت إليه بسبابتها وهي تُجيبه بقوة :

ـ أنت أذكى هؤلاء الملوك ولذلك اخترتك فأنت سوف تحقق مُرادي أما مُرادكم فلن يتحقق، لن يمهلكم المُخلص حتى تستعدون

لحربه، هو سيد الزمن ويملك ما لا تملكونه على الإطلاق وأنا على يقين أنهُ هُنا ويعرف هذا الحوار الدائر بيننا، أنتم لن تزحفوا إلى أرض النور هو من سوف يأتي إليكم هُنا بجنوده ولن تصمدوا أمامه، أما أنا فسوف أحصُل على معركتي معه وإما أن أقتُله أو أُقتل لا يختلف الأمر عندي لاختلاف النتيجة في الحالتين نفذت إرادتي فالمُخلص لن يحكمني ..

انتصب الملوك الأربعة فزعًا من حديثها وصرخ (نهاش) غاضبًا :

ـ لقد استدرجتنا تلك الحقيرة إلى المهلكة، كيف لم نفهم أن باجتماع جيوشنا وفرنا على المخلص أكبر أمانيه فجميع أعدائه بنقطةً واحدة، كم كُنا أغبياء .

فزع الملوك الأربعة يحاول كُلٌ منهم اللحاق بجنوده والتحصُن بهم حوله، يتدافعون هربًا من القاعة الحجرية بينما بقي (بوان) حوله حرسه وأمامه (سيلا) تضحك بجنون، تحدث إليها في صدمةً :

ـ لما الخيانة وقد وعدتك تنفيذ مطالبك .

أجابته بقوة وحزم :

ـ أنا لم أخُنك أو أخُن غيرك، ألم تفهم للآن أن المُخلص يملك الزمن ويستطيع معرفة الماضي والمُستقبل!، أنا أعرفه جيدًا فهو لن ينتظر زحفكم نحوه بل سوف يزحف إليكم ولن يُمهل أحدكم الهرب،

لكنِ لن أنكر أني أعلم طريقةّ تفكيره وعجلت قدومه بدفعكم إلى الاحتشاد هنا باستفزازي جشع قلوبكم لأنال مُرادي وقد كان .

ـ أنتي شيطانة حقيرة .

ـ وهل يوجد على الأرض ملاكًا مُجنح!، لقد انتهى زمن الملائكة فجميعُنا شياطين نحيا بالجحيم، وعدي لك أني لن أقتلك ولكن تأكد أن جميعكم هالك الليلة فالمُخلص لن يترك أحدكم حيًا . ..

اندفع (بوان)آمرًا جنوده بإغلاق البوابات وإطلاق نفير المعركة، صرخ في الجموع الفزعة بساحة الجبل الأسود قائلاً :

ـ إن كان كُتب علينا الموت فلنموت إلا ونحن رجال، تأهبوا للقتال فلا هرب لنا من المُخلص .

اندفعت كلماته إلى الحشود تُشعل فيها الحماس والحُلم بالانتصار، كان قرار (بوان) هو الاحتشاد أمام البوابة الشرقية فإن كُسر الجنود يكون هنالك ملجأ وهو الاحتماء بالمملكة خلف أسوارها فإن كُسرت يكون الهروب عبر البوابة الغربية إلى مملكة الجبال البيضاء..

كانت خطته ذكية بقدر ما هي انتحارية ولم يُدرك أنهُ بتلك الخُطة سمح فقط لأحد أخبث ملوك الظلام الهرب وهو (نهاش) الذي تسلل بالقليل من حراسه عبر البوابة الغربية هاربًا من جحيم

المعركة التي سوف تشتعل خلال ساعات، مُستغلاً انشغال الجميع بالحرب متوهمًا النجاةّ بحياته..

حُشرت الجنود أمام البوابة الشرقية في عرضٍ ضخم تجاورت فيه جيوش الممالك الأربعة يقودهم (بوان) وهولا وشاكو من قلب الحشود المُسلحة بمطارقها ورماحها الخشبية القاتلة، كانت الحشود ثابتة مُعتقدة بانتصارها من كثرة عددهم!..

لم يفهم أو يتخيل أحدهم (المُخلص) وقدرته وجيش النور وكيف لهم أن يتخيلوا وهم لم يشتبكوا إلا مع المُبشرين فقط، تحطمت آمالهم ودب الفزع بقلوب الجمع مع وقع سماعهم، بدأت الأرض تهتز بخفة، أصوات طبول وصرخات تحفيز تشُق صمت الليل، أصوات صهيل الخيول الأسطورية التي طالما وصل ذكرها على لسان الناجين من سيوف (المُبشرين) أصبح أمامهم فهو حقيقة، جيشٌ يرتدي دروع لامعة بلمعان الذهب، يحمل جنوده أسلحةَ ودروعًا غريبة معدنية لامعة!، وأقنعةً وخوذًا على رؤوسهم، يتحركون بانتظام شديد يتقدمهم صفوف الخيول الأسطورية المُدرعة على ظهر كُل واحدٍ منهم جُندي مُسلح..

هي معركةً غير مُتكافئةً على الإطلاق، إنما هي مذبحةً لملوك الظلام وجنودهم وهم يستحقونها، هبط (المُخلص) من فوق فرسه في رحبةً بين جيشه وجيوش الظلام، بدا قائدًا قويًا مُهابًا مُقدرًا

بين جنوده، طويل القامة يرتدي ذات ملابس ودروع جنوده، لا يُميزه عنهم ألا قناعهُ الأبيض، فهو الوحيد بين جنوده لا يرتدي لثامًا إنما يرتدي قناعًا كاملاً يُخفي بشرته وقسمات وجهه ولا تبدو منه إلا عيناه، تحمي رأسهُ خوذةٌ لامعة بصُفرة يُقال أنها من الذهب وهو أنفثُ المعادن وأندرها، استدار يواجه جيشه مُتحدثًا إليهم بنبرةٌ حازمة قوية سمعها الجيشين قائلاً :

ـ تلك الجيوش والملوك أمامكم هي أشر ما على تلك الأرض، هؤلاء الظالمون لم يكتفوا بما يُعانيه البشر من خريفٍ قاتم وظلامًا دامس وموتٍ يحوم حول رؤوسهم يحصِدُ أرواحهم، فأسرعوا ينشرون الذُعر بجنودهم يستعبدون البشر لإشباع جشعهم، أما شعوبهم فهي أخبث منهم وأكثر منهم وضاعة فالساكت عن حقه يستحق قطع رأسه، فلا تأخذكم بهم شفقة أفنوهم عن أخرهم ولتكون معركتنا تلك إعلان آخر مبادئ أرض النور وهو (التطهير)، هذا المبدأ رغم قسوته هو الحل الأوحد مع تلك الملوك والشعوب فهم ارتضوا الدنية ولا أمل منهم أو فيهم، وتذكروا دائمًا أن الوحيدة التي سمحنا لها دخول مملكتنا على أمل احتوائها كانت هي من خانت مملكتنا بأكملها.

لفظ أخر كلماته وتحصن بدرعه فجأة مُستديرًا خلفه، ليصُد ضربةّ (سيلا) التي أرادت مُفاجأته من الخلف، تصدى لضربتها ونهض يواجهها ووجه إليها حديثه :

ـ أنتِ على يقين أني رأيتُ تلك المعركة مئات المرات، في كُل مرة كُنت أحاول أن أجد نهايةً لها بغير قتلك فأفشل .

ابتسمت له وأجابته وهي تندفع تجاهه :

ـ لأنك لم تُحب فلو أحببت لعلمت أن الحُب وحده إما يصلُ بك إلى سماء الأمل أو إلى جحيمُ اليأس، فأنا مِتُ مُنذُ ذابت روحي بعشقك .

أنهتْ كلماتها وهي تندفع نحوه فأسقطتُ سيفاها قبل أن تُلامسه ليشُق نصلُ سيفه صدرها الخالي من الدروع!، اندفعت تُدخل سيفه لجسدها حتى كادت تُلامسه وهمست بأخر كلماتها له :

ـ الآن بات قلبي لا يؤلمني رغم أني بقُربك أكادُ ألامسك .

أنهت جُملتها وأسلمت روحها وانقطعت أنفاسها، انحنى يهمس في أُذنها رغم يقينهُ بموتها :

ـ ومن أخبركِ أني حيٌّ فأنا ميتٌ يعيش بقاع جحيم اليأس مُنذُ ولدت! .

أنهى كلماته وحمل جثتها على يديه مُتجها لجنوده صارخًا فيهم :

ـ لا تتركوا أحدًا منهم حيًا إلا من هُم دون الرابعة عشر أحضروهم أسرى .

لم يتردد قادة جيشه و جنوده في تنفيذ أمره، فكانت تلك هي (معركة النور) ومذبحة الظلام، ذُبح فيها كامل جنود الظلام وملوكهم، لم تخترق أسلحتهم دروع حراس النور بينما كانت سيوف جيش النور تحصُد أرواحهم الظالمة بلا هوادة على أنصال سيوفهم أو تحت سنابك خيولهم الأسطورية..

فما أن انتهوا حتى أحرقوا المملكة عن أخرها فتحولت لكُتلةٍ من لهب الجحيم المُشتعل يلتهم ما بقي من البشر حتى فنيَّ الجميع باستثناء من هم دون الرابعةّ عشر من العُمر، فلم يهرُب من الموت بتلك المعركة سوى (نهاش) الذي قتلهُ حُراسه الثلاثة في رحلةّ هربه وقسموا مملكته عليهم!، كما خان ملوك الظلام خانهُ جنوده وحراسه، هذا الكون تعفن تمامًا ولم يعود هُنالك أملاً واحد به إلا بأرض الخلاص والمُخلص، أنهت (زهرة) حديثها فجأة بصرختها :

ـ أنظري لقد عادت ومضات الأمل .

فجأة شق ظلام الليل الدامس نور القمر الأبيض، تجلت أمام أعيُنهم النجوم اللامعة تتلألأ من جديد تُحيّ الأمل بداخل تلك العجوز، كانت تلك هي المرةّ الأولى التي لا تسعد فيها (روفان) بالومضات، فلقد قطعت عليها استمتاعها بقصة المُخلص والكثير من الأسئلة التي تنهش عقلها النابه، كيف يتحكم المُخلص بالزمن و ما سرّ كلماته لسيلا وهي ميتة؟!، وما السر خلف ترك الأطفال

أحياء وأسرهم وما هو مبدأ التطهير؟!، لم تمُر لحظات حتى اختفت ومضات النور وعاد الظلام يُسيطر على السماء، نهضت (زهرة) تتجه إلى الدرج لتهبط إلى غرفتها، سألتها (روفان) وهي تتبعها بحسرة :

ـ ألن تُكملي حديثك يا جدتي .

أجابتها دون أن تلتفت أو تتوقف عن الحركة :

ـ غدًا يا عزيزتي فأُريد أن يظل آخر ما بذهني قبل نومي الليلة هو الأمل .

***

-٢-

«قد يكون في أحلك أوقات الظلم وأشد لحظاته ظلامًا القتل والدم مشروعًا!، لكن المؤكد أن بذات تلك اللحظات والأوقات الحُب والتضحية شرعًا وشريعة»

.. تضحية بأرض الظلام ..

.. إليانور ..

.. التطهير ..

انتزعها من نومها القلق صوت صرخات بجوار منزلهم، انتفضت فزعة تُفتش عن جدتها فلم تجدها، أسرعت خطواتها خارج الغرفة لتجد جدتها وأمها على أبواب منزلهم يُراقبون تلك المعركة بين رجال الأمن الثلاثة الذين يؤمنون المُستعمرة مُنذُ معركة النور مع (خوان) هذا الرجل الطيب يتهمونه بإخفاء اسماك صيدهِ عنهم ويتناوبون على صفعه وضربه بعُنف على مرأى زوجته وأهل المُستعمرة فكان الصُراخ لزوجته السيدة (ماري) تستعطف هؤلاء الجنود الكف عن إيذائه فنالها ذات القدر الذي نال زوجها من الضرب والإهانة دون أن يُحرك أحدًا من أهلِ المُستعمرة ساكنٌ لدفع الظُلم عن جاره، هؤلاء الجنود صاروا عبئًا ثقيلاً على المستعمرة فهم لا يكفون عن طلباتهم من حطب وماء وطعام بل واقتياد النساء عنوة إلى مقرهم لجوار بوابة المُستعمرة واغتصابهن لم تنجوا من تحت براثنهم امرأةٌ من المستعمرة إلا (جوري) فلم يتجرأ أحدهم على

الاقتراب منها أو من ابنتها (روفان) وتتعدد الأسباب في ذلك فالبعض يُرجع ذلك لخوفهم من زوجها (مهاب) وقته و من سحر والدتها (زهرة) فالجميع هُنا يعتقد أنها ساحرة فلها قُدرةً غريبة على التنبؤ بالمستقبل، فتذكر أحداثًا وتحدث بعد أيام كما وصفتها تمامًا!، كانت الأجواء غائمة كالعادة ولكن الرياح في هذا اليوم شديدةً، قطع هذا المشهد القاسي صوت (زهرة) القوي يشُق صمت قلوب أشباه الرجال الخائفين من ثلاثة جنود إن اجتمعوا عليهم لقتلوهم في لحظات صارخةً :

ـ كفوا أيديكم عن الرجل وامرأته .

توقف اثنين من الجنود بينما استشاط غضب الثالث واندفع تجاه (زهرة) وابنتها وحفيدتها الثابتون في موقعهم صارخًا فيهم :

ـ لقد سئمت وجودكم ولن أسمح من اللحظة لأحدكم التدخل في شئون إدارتنا للمستعمرة .

تعالت ضحكات زهرة وأردفت في قوة :

ـ بل نحنُ من سئم وجودكم وأنت ميت خلال لحظات أما صديقاك فسوف يُطردون بعد موتك .

استشاط غضبه وصرخ فيها :

ـ من عساه يقتُلني أنتي أيُها العجوز أم هاتين الحقيرتين ؟! .

أنته الإجابة من خلفه بطرقةّ مطرقةًّ هشمت رأسه مع صرخته قائلاً :

ـ بل أنا أيها الوضيع .

صُعق الجميع لظهور (مهاب) وقتله للجندي بضربةًّ واحدة، بصق على جُثته الساقطة أسفل قدميه واستدار يواجه الجُنديان الآخرين بساحةّ المُستعمرة، وجه حديثهُ لهم وهو يقبض بقوة على مطرقتهُ الخشبية برأسها الحجري الصُلب قائلاً في حزم :

ـ الآن وبعد أن طال الجميع ظُلمكم وقد أمهلتكم وحذرتكم عشرات المرات لم يعود أمامي إلا خيارين عليكم القبول بأحدهما، الأول أن أقتُلكما وهذا ما أتمناهُ حقًا، والثاني هو رحيلكما بلا رجعة عن المُستعمرة، فأي الخيارين تودان ؟ .

فزع الجُنديان فألقيا بأسلحتهما وهم يتحركان تجاه باب المُستعمرة صارخين :

ـ الرحيل .

هرب الجُنديان من المستعمرة ليتجه مهاب إلى السيد خوان يُنهضه برفق وأردف لهُ بكلماته :

ـ لا تقلق يا صديقي فلن يقترب أحدًا منك أو من أبنائك ثانيةً .

اندفع خوان يُقبل يديه بشفاهه المُبللة بدموع القهر يطبع قُبلة الطاعة والولاء على تلك اليد التي أنقذتهُ وأنهضته، تهللت المُستعمرة لرحيل هاجس الخوف من ظُلم الجنود وظلام وفساد حُكمهم لمستعمرة العجوز، أُشعلت النيران بساحةّ المستعمرة وخرجت المُدخرات من أسماك شويت على النيران وتراقص الجميع فرحًا بمهاب فهو محبوب الجميع، لم يدوم الاحتفال طويلاً لينفرط عقد الجمع مع بدأ دخول الظلام، انسحبت (زهرة) إلى سقف منزلها تتبعها حفيدتها بينما أغلق مهاب أبواب المستعمرة فلم يتجرأ أحدًا على الاعتراض على قيادته للمستعمرة بعد ما بذله من أجلهم وطردهُ جنود الشيطان، أشعلت روفان الحطب للتدفئة والنور واحتلت موقعها جلوسًا تواجه جدتها وهي تنظُر لها بإعجاب شديد، ابتسمت لها (زهرة) وسألتها :

ـ ما الأمر؟!، يبدو لي وكأنكِ تُشاهدينني للمرةّ الأولى .

أجابتها بذهول :

ـ كُل يومًا يزداد عشقي وإعجابي بك يا جدتي، لكن ليّ سؤالاً أُريد إجابته منكِ رغم علمي أنكِ لا تُحبي الأسئلة، لكنِ أحتاج لأن أفهم .

ابتسمت وأجابتها مُمازحة بسؤالها :

ـ هل سؤالكِ هذا أهمُ لكِ من قصة المُخلص و رحيلك لأرض الخلاص؟! .

فُتحت عيناها على اتساعها وأجابتها بذكاءٍ هي حقًا تملكه :

ـ كليهُما عندي على نفس القدر من الأهمية لكن سؤالي أحتاجه لأفهم ما حدث مُنذُ لحظات هُنا أما قصة المُخلص فهي مهمة لأعلم كُل ما يُمكنني عن أرضٍ سوف أعيشُ بها باقي حياتي .

ـ إذاً اسألي سؤالك يا ابنتي حتى نُكمل قصتنا .

ـ كيف تعرفين أحداثً لم تحدُث، فهل هذا يعني أنكِ مثل المخلص سيدةّ الزمن ؟! .

أدهشها وباغتها سؤال حفيدتها فأجابتها نافية بحزم :

ـ لا يا ابنتي أنا لستُ سيدةً للزمن أو أي شيئًا، كُل ما في الأمر أنه ترد في ذهني بعض المشاهد فاسردُها والحق أني لا أعلم كيف لها أن تحدُث، مثل مقتل الجندي..فلقد شاهدت المشهد قبل حدوثه بلحظات فقط، أما المُخلص فأمرهُ مختلف هو يملك تحديد الزمن الذي يُريد التواجد فيه بدقة والعودة منهُ إلى أي زمنٍ يُريد، أنا لا أُشبهه ولا أُقارن به على الإطلاق .

تعجبت بقوة من إجابة جدتها فلم تتخيل أن تعجز جدتها عن تفسير أمرًا فما كان منها إلا الاستسلام للأمر والجنوح لما اعتادته مع جدتها وهو عدم الخوض في أسئلة قد لا تملكْ جدتها إجاباتها، فعجلت بقولها :

ـ إذاً نُكمل قصة المُخلص، كُنا توقفنا عند فناء مملكة الجبال السوداء ومقتل نهاش على يد جنوده في رحلةِ عودته .

رحل المُخلص بجيشه يقتاد أسْراهُ من الأطفال واليافعين فهم وحدهم الناجين، مُحيت مملكة الجبال السوداء تمامًا فلم يبقى منها بعد انتهاء المعركة سوى النيران التي تلتهم ما بقي من أسوارها ومبانيها وجُثث القتلى التي تعُج بها أطلال المملكة المُشتعلة، أنهار الدماء تملأُ ساحة المعركة....

كان ذلك هو أخرُ ما رأتهُ عين أو سمعتهُ أُذن عن معركة النور، رغم قسوة وبشاعة تلك المعركة وكثرة الدماء بها إلا أنها أطلقت شُعاع الأمل من جديد..

الآن لا سُلطةّ لملوك الظلام لاستعباد البشر، الأمل بالهرب لأرض الخلاص أصبح ملكًا للجميع ولا يمنعهم منه أحد، هذا هو ما توهمه البشر لتتسرب آمالهم بالحرية من استعباد ملوك الظلام أمام استعباد البشر لبعضهم، لقد أمسى كُل فردًا الآن مَلك نفسه ويفرض قانونه وسُلطته في نطاق مُلكه ويستعبد كُل من يقع تحت يديه ويقتُل كُل من يحاول سلبه مُلكه المزعوم!، أما الهرب إلى أرض الخلاص فقد سُجن بأعمق سجون الأرض والكون بأكمله مُنذُ نشأ وهو سجنُ الفكرة، لقد سجن المُخلص البشر بالظلام يمنعهم أرض النور بأشر أفكار الأرض وهي مبدأ (التطهير)..

هذا المبدأ انتهجهُ المُخلص بعد معركة النور مُباشرةً وعماد هذا المبدأ هو قتل جميع أهل الأرض المُظلمة فيما عدا الأطفال واليافعين وحدهم لهُم الحق بالحياةّ والوصول بسلام لأرض الخلاص!، نشر المُبشرين المبدأ بعد المعركةّ مُباشرةً و عللوا هذا المبدأ بأن من نشأ بالظلام و أرتضى الدنية في كنف الظلم دون مقاومة فهو لا يستحق إلا الموت أو الحياةّ بالظلام..

وإن المخلص رغم اقتناعه بذلك المبدأ كان قد رفضه حينما عُرض من (مجلس النور) مُعللاً ذلك أن التجربة وحدها هي ما سوف تحكُم على تنفيذ مبدأ التطهير من عدمه، فتم قبول الجميع في البداية ولكن الأطفال واليافعين وحدهم تخطوا أسوار أرض الخلاص..

أما الباقي من أهل الظلام وُضع بقلعة حجرية كبيرة شيدها المُخلص على أطراف مملكته لتجهيزهم، فكانت سيلا إحدى المُتدربات وكانت أكثرهم ذكاءً وقدرة على الاندماج فسُمح لها بالدخول لأرض النور، فلم تطول إقامتها هُناك حتى أعلنت العصيان وكان منها ما كان فقرر المُخلص الرضوخ لقناعته وعرض مجلس النور، نقل المُبشرين لأغلب أهل الظلام تلك القصة وأعلموا الجميع أنهم سوف يغيبون لفترة يُعدون (إليانور) وهي سُفن الإنقاذ والنور التي سوف تحملهم عندما يعودون، سوف يطوفون كامل بقاع الأرض يقتلون كُل من يُقابلهم إلا الأطفال واليافعين فعلى الجميع

الهرب والاختباء فور رؤية مراكب النور!، عاد الكون أسوأ من ما كان قبل معركة النور، أمسى الظلام ظُلمات لا تنتهي وساد التجبُر على الأفراد فالأقوى قطعًا يلتهم الأضعف..

طال غياب المُبشرين ومراكبهم المزعومة حتى ظن الجميع أن المُخلص انتهى وأن أرض الخلاص لم تكون سوى وهم، ولكن أين رحل بجيشه وكيف اختفى ؟!..

لم يُدرك أحدًا في تلك الأثناء أن هذا الغياب ما كان إلا غفوةً بسيطة لوحشٍ قاتل يستعد لالتهام أرواح البشر بلا رحمة، ظل الغياب مُبهم حتى الليلة على مشارف مملكة الرمال ذُهل أهل المملكة بأكملهم من هول ما يرون، انتُزع كامل أهلِ المملكة من نومهم مفزوعين على أصوات قرع الطبول المدوية، سَحر جمال القمر وتلألأُ النجوم بالسماء كُل من فتح بابه، جُن جنون أهل المُستعمرةّ من الفرح والسعادة والصُراخ لقد عاد النور!، قُرعت أبواب المنازل توقظ النائمين للمُشاركة بفرحة عودة الحياة إلى الكون، حتى ارتقى الرجال أسوار المملكة للاقتراب من السماء،

أرادوا ملامسة القمر والنجوم لو أمكنهم حتى صعقهم هول ما وقعت عليه أعيُنهم أمام أبواب المملكة، يقف أمام أعيُنهم هرمٌ ذهبي ضخم بحجم جبل لا يُلامس الأرض بسفحه بل كان يرتفع عنها مُعلقًا بالهواء مسافة مترًا!، يخرُج من قمته درعٌ مضيء على

شكل قُبةً كبيرة تُغطي هذا الهرم بالكامل ويُغطي قطرها المواجه لهم مملكة الرمال، يصطف أمام ضلع الهرم وبين أبواب المملكة جيشُ النور بكامل تسليحه، فرقّ الطبول و الخيول والحراس بدروعهم وسيوفهم وخوذاتهم يتأهبون للمذبحة، تقدم أحد أعضاء الجيش رفع صوته بقوة لتصل إلى الواقفون أعلى السور من أهل المملكة قائلاً :

ـ أنا (ون) قائد جيش النور وحراسه، سبق وأخبركم المُبشرين بضرورةّ الهرب فور رؤية (إليانور) لكنكم تخيلتم أن أرض النور انتهت لما طال غيابنا والآن ها قد علمتم سبب غيابنا، كُنا نُعد النور لنأتي لكم بيه مُهاجمين مُبيدين أرواحكم المُظلمة، أمرني المُخلص أن أُبلغكم أن تلك هي أول مرة للبشر رؤية سُفن النور وعليه أُمهلكم هذه المرة دون قتل ولكن لا أمهلكُم تسليم الأطفال واليافعين لنا فإن رفضتم قتلناكم جميعًا وأسرنا من هُم دون الرابعة عشر من العُمر، أمامكم دقائق فردكم بالإيجاب يكون بفتح أبواب المملكة أما رفضكم فيكون بترك الأبواب مُغلقة، لكُم مُهلتكم حتى تتخذوا قراركم .

لم يتأخر عليه الرد خرجت الصرخات من الحناجر أعلى السور صارخة برفض تسليم أطفالهم وأبنائهم للمُخلص مهما كان الثمن، أسرعت أياديهم تقذف الجيش المُرابط أمام مملكتهم بالأحجار من أعلى السور، استدار (ون) يواجه جيش النور وصرخ فيهم أمرًّ :

ـ الآن وقد جاء الرد عليكم اجتياح تلك الأرض ولا تقتلوا الجميع فقط اتركوا النساء أما جميع الرجال فاذبحوهم واحضروا الأسرى جميعًا من الأطفال والنساء هنا ثُم أحرقوا تلك الأرض الميتة فأُريدها رماداً قبل إشراق الصباح، فتلك الأعينُ المُظلمة الظالمة وتلك القلوب الجاحدة لا تستحق رؤية نور الشمس .

أطلقت كلماته وإشارته بسيفه تجاه المملكة خلفه غضب جيشه، فصب حُراس النور لهيب أنفاسهم نارًا على رأس مملكة الرمال، تقدمت صفوف الجنود في تنظيمٍ مُذهل، وقُبيل اقترابهم من مرمى أحجار من على السور، رقعوا دروعهم يتحصنون تحتها في تناغُمٍ وتناسق مُرعب..

بدأت تتشكل الصفوف من ست جنود مُتجاورين يعرفون وجهتهم تجاه بوابة المملكة، ليلصق الصف الأول دروعهم على البوابة ويدفعون بكامل قوتهم فتبعهم الصف الثاني يدفع الصف الأول، تحولت أجسادهم إلى أدوات دفع لكسر البوابة الخشبية التي لم تصمُد إلا لحظات أمام إصرار وقوة حراس النور، سقطت البوابة فسقطت معها المملكة في بحرٍ من دماء أبنائها، حصدت سيوف حُراس النور الأعناق دون تردُد، لم تطُل المعركة فلا يملك أحدًا قوةّ وتجهيزات جيش النور على الأرض، هذا الجيش يُشبه أرضهم وقائدها فجميعهم نهض من قاع الظلام يشُق طريقه تجاه النور بلا تردُد أو رحمة!، جُمعت نساء المملكة و أطفالها و اليافعين

أمام (ون) و كتائب جيش النور خلفه ومن خلفهم إليانور، أشار لجنوده بنزع الأطفال واليافعين من أحضان أُمهاتهم، شقت صرخات النساء صدر السماء فلم ينتبهوا لأول شُعاع شمس تراهُ أعينُهم مُنذُ ولدوا، كانت حسرةّ الفراق وقهر الضعف أمام جيش النور كافيةً لهم لتمنع أعينُهم عن رؤية نور الشمس، أنتُزع الأبناء من أمهاتهم على أصوات الصرخات الرافضة والدموع الجارية على وجههم تحرق وجناتهم وقلوبهم، صرخت إحدى النساء في (ون) :

ـ أنت ومُخلصك لا تعلمون الرحمة وظلمتم البشر أكثر من ملوك الظُلم، فلم يجرأ أكثر الظالمين تجبُرًا على انتزاع طفلاً من حُضن أمه بعد قتل أبيه، فأي نورًا كاذب وأمل زائف تُحدثونا عنه؟! .

نظر لها وأجابها بقوة :

ـ أنا ومُخلصكم لم نظلمكم بل أنتم من ظلمتم أنفسكم حينما قبلتم الاستعباد من ملوك الظلم وارتضيتم حياتكم بالظلام، وأما أطفالكم فهم راحلون ليتعلموا بأرض النور أن النور لمن يتمسك به وحده أما المُتخاذلون فيستحقون الظلام، وأما أباء هؤلاء الأطفال فهُم لم يرتقوا لدرجة ذكور الوحوش بالغابات، عن أي أباءٌ تتحدثين وهؤلاء الآباء قبلوا أن تكون زوجاتهم وأمهات أبنائهم مطية كُل ملك وجندي مُقابل حفنة طعام أو من خوف على حياة الموت بكرامة أشرف منها، كم من فتياتكم اغتصبت تحت أعينُ من تقولين

عنهم أباء؟!، إنما أراد المخلص انتزاع هؤلاء الأطفال واليافعين منكم ليحيوا بكرامة يستحقونها أما أنتم فجميعكم لا يستحق الحياة لأنهُ لا يملكُ الكرامة، وما تركناكم أحياء إلا لتنتشروا في الأرض فتنشدوا أخبار المعركة، ليس لأن بكم أو مرجوٌ منكم أملاً .

أنهى كلماته القاسية وأشار تجاه إليانور خلفه، فُتحت لإشارته بوابةٌ كبيرة بضلع الهرم الذهبي فبدأ انسحاب الجنود وقائدهم وأسراهم إلى داخل الهرم، فما أن دلف أخر فردًا منهم إلى داخلِ الهرم حتى أُغلقت البوابة، وبدأ الهرم في التحركُ مبتعدًا عن أطلال المملكة وهي تحترق وتخرج من كُل شبرًا فيها ألسنة اللهب، وصرخات الحسرة والقهر التي تطلقها تلك القلوب الثكلى في رجالها وفراق أطفالها، أنهت قصتها ولم تملكُ السيطرة على تلك الدموع بأعينها ففرت تجري على وجنتيها، نظرت لحفيدتها التي صُعقت من هول ما سمعت فتحدثت لها بنبرةٌ هادئة :

ـ هذا هو كامل الأمر وما أعلمهُ عن أرضنا والمُخلص، أما أنتِ فسوف تعلمين كل شيئًا بأرض النور وأنا على يقين أنكِ سوف تكونين ذات شأنٌ كبير هناك .

تحدثت بحُزنٌ غزا قسمات وجهها و أعيُنها تتأهب للبكاء :

ـ لكن تلك القصة مؤلمة يا جدتي ويبدو من كلماتك أن أرض النور لا رحمةّ فيها، فكيف ليّ أن أعيش بأرضٍ لا ترحم أحدًا .

أومأت برأسها نفياً وربتت على كتفها برفق وأردفت :

ـ لا يا بنيتي إن أرض الخلاص ملئها الرحمة ولكن لمن يستحق فقط، فالرحمة للظالم هي معاونةٌ لهُ على ظُلمه، وأنتي سوف تُغيرين نظرةّ أرض الخلاص للبشر وسوف تُعلميهم أن الجميع بالخارج ليسوا جميعًا ظلمة بل أغلبهم مظلمون يستحقون الرحمة، تلك نبوءتي لكِ فهل تستطيعين تنفيذها ؟ .

أجابتها بقوة وحماس اتقد بعينيها :

ـ سأفعل، أعدُكِ أني سأفعل ولكن كيف سأصل لأرض الخلاص .

نظرت للسماء و أجابتها :

ـ اليوم .

ـ اليوم!، كيف ؟! .

نهضت (زهرة) تهبط إلى داخل المنزل فتبعتها (روفان) التي لم تنتبه أن النهار قد أتى وأنها قضت الليل بأكمله لجوار جدتها تستمع لها، جلست (زهرة) بأحد زوايا رحبةّ المنزل الفسيحة ورفعت صوتها تستدعي ابنتها وزوجها، اندفعوا تجاهها مُندهشين لاستدعائها لهم فهي لم تطلبهم بتلك الطريقة طوال حياتها، نظرت لهم وأردفت بقوة :

ـ هل أنتم جاهزون ؟ .

نظر مهاب وجوري لبعضهم وأجابتها جوري مُتعجبة :

ـ جاهزون لماذا يا أمي ؟! .

ـ التضحية .

أجابها مهاب مشدوهًا :

ـ التضحية بماذا ولماذا يا أمي ؟! .

نظرت لهم بقوة وأجابتهم بثبات :

ـ التضحية بروفان لتحيا بأرض النور .

فتحت جوري فمها وهي مشدوهةً من كلمات أمها، وأجابتها مُضطربة :

ـ أتقصدين وحيدتي يا أمي؟! .

أجابتها بنفس الثبات :

ـ نعم أقصدُها .

صرخت غاضبة :

ـ هذا دربٌ من الجنون، كيف تطلُبين مني التضحية بوحيدتي ؟! .

انتفضت من جلستها وأجابتها بغضبٍ شديد :

ـ لتحيا حياةً أفضل مني ومنكِ ومن أبيها، ولما تصرُخين فهل أنتِ من تتمزقين لهذه التضحية ألمًا وحدك ؟!، استفيقي من سُباتك فتلك الطفلة أنا من قومت

بتربيتها، فطوال ثلاثة عشر عامٌ لم تفارق صدري في نومها يومًا، هي أنيستي الوحيدة ولا حياةّ لي بدونها، لكن جميعنا على يقين بأن هذا هو الاختيار الأفضل لها، أم تُحبين أن تظل مثلنا عُرضة لهجمات المُخلص أو اختطاف أحدهم لها واغتصابها أو ذبحها وأكلها ؟! .

أجهشت (جوري) بالبكاء وسقطت على رُكبتيها أرضًا وتحدثت والدموع تُخالط كلماتها :

ـ أيُ جحيمٌ نحياه وأيُ ذنبٌ اقترفناه ليكُن هذا الألم نصيبنا، لأُبقي ابنتي بصدري عليّ تحمل شتى ألوان العذاب والخطر حولها، ولأقبل رحيلها لتحيا حياةً أفضل عليّ أن أضحي بها وأقبل الحياة مع حسرة الفراق طوال حياتي، فأي بؤسٍ وموتٍ ببطء عليّ اختياره ؟! .

أنهضها (مهاب) وتحدث بلهجته الثابتة القوية لزوجتها المُمزقةّ ألمًا :

ـ نحنُ سوف نختار لها حياةً أفضل منا وسوف نحصُل على السعادة مع رحيلها، سوف نظل نتخيل السعادة في عيناها وهي تُشاهد الشمس التي لم نراها، سوف نشعُر بالطمأنينةّ ونحنُ على يقين بأنها بمأمن من هذا الجنون الذي نحياه، واجبنا تجاه ابنتنا لا يقتصر على المأكل والمشرب والأمن وإنما يمتد لتأمين مُستقبلها الذي سوف ترسُمه بيديها في أرض النور، هذا هو واجبنا ومُستقبلها الذي لن يرسُمه أحدًا غيرها، لقد أعددناها جيدًا والآن علينا أن نكون سندها وندعم قرارها لا إحباطها يا عزيزتي .

أنهى كلماته لزوجته وأشار لابنته الوحيدة بالاقترابِ منه، ربت على كتفيها برفق وأردف في حنو لها :

ـ أنا على يقين أنكِ تُقدرين ما نُضحي به في سبيل مُستقبلك، وإني على يقينٌ أكبر بأنكِ سوف تجعلي تلك العائلة فخورةً بكِ حتى ونحن أموات سنظل نُدعمك فقط انظُري دومًا إلى النجوم بالليل من أرض الخلاص وسوف تجدينا ننظُر لكِ ونُخبركِ أننا فخورين بكِ .

انتهى من حديثهِ لها واحتضنها بقوة وأردف :

ـ فلتستعدي للرحيل فرحلتنا طويلة إلى حدود مملكة الجبال السوداء سوف أُوصلكِ حتى هناك، فهُنالك تستقر (إليانور) وهي سوف تنقلكِ لأرض النور .

اصطحب زوجته إلى حُجرتهم يُهدأ من نفسها ويحد من آلامها، بينما اتجهت روفان بصُحبةِ جدتها لحُجرتها تُجهز للرحيل، بسطت لها (زهرة) يدها تُسلمها شيئًا، بدا لامعًا فسألتها حفيدتها في دهشة :

ـ ما هذا يا جدتي ؟! .

ـ تلك هي قلادة كانت تضعها أمي حول عُنقها وسلمتها ليّ قبل وفاتها، أعلمتني أُمي أن الرسم على القلادة هو للأرض وهو قديمًا للغاية ولا تعلم هي كيف صُنعت فلقد ورثتها عن أمها فها أنا أُورثكِ تلك القلادة لتورثينها لأحب الناس لقلبك يومًا ما .

اندفعت (روفان) تحتضن جدتها بقوة وتُقبلها في عشق، لم تكُن لتتخيل إحداهُما أن يومًا ما سوف يفترقا، لكنهُ القدر والمحتوم وحدهُ ما فرق بينهما، قطع لحظات وداعهم صوت مهاب من الخارج يستعجل ابنته الر حيل، فعليه إيصالها والعودة قبل حلول الظلام الدامس هكذا كانت خطته رغم الخطورة البالغة في رحلته كان يأمل النجاح .

***

-٣-

« عُمق الكلِمات ينبُع من عُمق الفكرة فبعضُ الكلِمات والأفكار نكتبُها بعُمق آلامنا ومدادُها دمائُنا»

.. ون ..
.. أرض الخلاص ..

تحركت روفان تتبعها جدتها خارج حجرتهما، وقفت والدتها تنتظرها للوداع الأخير قُبيل الرحيل، احتضنتها بقوة وهي تنتحب من حسرةّ ومرارة الفراق، طوقتها بيديها تضُمها لصدرها وأرادت لو أن لها قوة أن تُخفيها بداخلها حتى لا ترحل، حلت (زهرة) وثاق يدي ابنتها عن حفيدتها تُحررها من عالم الظلام وتدفعها للتقدم لخارج المنزل،

تقدمت روفان بخطواتها الثابتة لخارج منزلهم فتبعتها جدتها وأمها يُراقبان رحيلها بصُحبة والدها الذي استعد للرحيل فتقدم لخارج بوابة المُستعمرةّ يحمل مطرقته برأسها الحجرية تحسُبًا لرحلتهم تتبعه وحيدته فأجهشت (جوري) بالبكاء مع غياب ابنتها عن عينيها وهي تدفن رأسها بصدر أُمها، لم تُدرك (جوري) أنها اليوم لم تُضحِ بابنتها وحدها بل هُنالك تضحيةً أكبر لن يصل خبرها إلا مع اقتراب ظلام الليل؛ شخصت أعيُن زهرة تجاه بوابة المستعمرة وشردت طويلاً بلا أي حركة أو تعبير تكاد تكون لا تتنفس،

أخرجت جوري رأسها من صدرها وهي تلتمس القوّة من نظرات عينيها فشدهها كم الحُزن والأسى بهما وتجاعيد الحسرة التي ارتسمت على وجهها، بدت لها أنها رأت شيئًا في المُستقبل ألمها بشدة وتمكن من روحها التعسة، فسألتها (جوري) بقلق طغى على حُزنها :

ـ أرحيل روفان وحده هو الذي أصابكِ بهذا القدر من الحُزن أم هُنالك أمرٌ آخر ؟! .

أجابتها بنبرةٌ ملئها الحسرةَّ والقهر و هي تعُلق أعينُها على بوابة المستعمرة :

ـ لو أن بهذا الكون قدرٌّ ضئيل من العدل لما اضطررنا بالتضحية بكُل ما لنا فيه، ولو أن به قليلٌ من العدالة لقدُرت تضحيتنا وصارت اسطورة يتناقلها البشر عبر الزمن .

لم تكُن أعينُ زهرة وحدها هي من تتعلق ببوابة المُستعمرة، كانت روفان تسير للأمام بينما تلتف رأسها وأعينُها على بوابة المُستعمرة من الخارج، تلك هي المرةّ الأولى لها بحياتها تخطو أقدامها تجاه الغابة المُظلمة التي تربط بين مستعمرة العجوز وطريق الجبل الأبيض الذي ينتهي بالحدود القديمة لمملكة الجبال السوداء وهو الطريق المُختصر لكنهُ الأخطر، هو ليس الطريق الوحيد للوصول لمملكة الجبال السوداء، فهنالك طريقًا آخر عبر البحر للالتفاف خلف المستعمرة والوصل إلى قلب مملكة الجبال البيضاء ثم إلى طريق

الجبل الأبيض مُباشرةً ثم إلى حدود مملكة الجبال السوداء وهذا هو الطريق الآمن لكنه الاطول ولن يُسمح ل (مهاب) بالعودة إلى المستعمرة أو إلى مملكة الجبال البيضاء قبيل الظلام فكان طريق الغابة المظلمة هو الاختيار الأنسب خاصةً وأن مُهاب يقطع الأشجار من تلك الغابة مُنذُ أعوام طويلة حتى أنه صار يحفظها عن ظهر قلب، حتى مُفترساتها وأشباحها وأشجارها المُتحركة صارت تعرفه جيدًا ولا تقربه بسوء!، ظلت روفان تُعلق أعينُها الحزينة وأوجاع الفراق على بوابة المستعمرة وهي تبتعد عنها وعن أسوارها، حتى تعثرت قدمها لتسقُط بين يديه الحانتين يمنعاها السقوط، نظر لها بحنو بالغ وأردف وهو يدللها كعادته :

ـ ما كُنت لأُسامح نفسي أبدًا وأنا أرى أميرتي تسقُطُ أرضًا دون أن أمنعها السقوط ولو كان الثمن حياتي يا أغلى أُمنياتي .

ابتسمت وأجابته بخجل كعادتها :

ـ دومًا ما دللتني فهل سأظل طفلة بعينيك حتى يومُ رحيلي عنك ؟ .

ـ ولآخر يومٌ بحياتي تظلين مُدللتي وطفلتي، ومن أخبرك أنك ترحلين عني فأنتِ بداخلي أينما ذهبتِ، فليكُن ذلك يقينكِ وراسخٌ في وجدانك .

أنهضها وأشار تجاه الغابة وأردف :

ـ الآن نحنُ على مشارف الغابة ولسوف نعبرُ من خلالها، أنا أحفظها عن ظهر قلب لكن لا تسبقيني بخطوة فإن توقفت فلتتوقفي، وإن هرولت عليكِ الهرولة دون توقف حتى نصل إلى طريق الجبل الأبيض .

انتهى من كلماته وأندفع تجاه الغابة تتبعه روفان، تقدمت تلك الفتاة الصغيرة تجاه حُلمٌ وفكرة يملئُها الأمل، بدأت تغوص داخل الغابة الميتة التي لم تطأها أقدامها قبل هذا اليوم أبدًا، لم تفهم ما تسمعهُ وتراه وتشعر به سوى أنهُ معزوفةّ الموت، تلك الغابة لم تكُن تختلف كثيرًا عن حال العالم بخارجها، تفوح منها رائحة التعفُن و أجوائها رطبة تملئها المستنقعات السوداء والديدان، يختلط صوت تكسير جُثث أوراق الأشجار الميتة مع عصر الديدان و تكسير العظام الهشة للحشرات تحت أقدامهما، حتى الرؤية في تلك الغابة لم تكُن سوى استكمالاً لصورة الموت الذي يحوم حول كُل من يحيا بهذا الكون المُحتضر، أعجاز أشجار خاوية لا تُثمر تُخلف ظلالٍ تُشبه الأشباح مع عتمةّ الأجواء، أصوات بعض الضواري والمفترسات و وحوش السماء الجالسة على الجذوع الميتة أكملت المعزوفة السوداء لهما، لم يتوقف مهاب عن الركض ولا روفان من خلفه حتى اجتاز كليهُما الغابة فتبدلت الرؤية لهما، فضاءٌ فسيح من الثلج يُغطي جبلين كبار للغاية يقع بينهما طريقٌ لم يكُن طويلاً

للغاية، ما أن وصلوا لأول الطريق حتى نظر مهاب لابنته وأردف سائلاً دون أن يتوقف أحدهما عن الحركة :

ـ متى يتغير الكون ويتبدل حالنا وتعود الشمس والأنهار تجري والزهور تتفتح ويعود النور والدفء ؟، إن الكون يحتضر والحياة عليه تكاد تكون مُستحيلة، لا أمن ولا مأمن فيها .

انتهى من الجملة واستدار ينظُر لروفان مُبتسمًا، جذبها إليه يحتضنها وهم يتحركان وأردف في سعادة وهو يُشير بسبابة يُسراه تجاه السماء :

ـ أنتي نهري وزهري وشمسي وقمري وعشقي وولهي ويكفيني أنكي أنتيّ أنتيّ؛ لم اكسر الحرفي في جُملي فأنتي غير قابلةً للكسرِ ولو تحت مسمى اللغةِ، أنتي أملي ويقيني يخبرني أنكِ سوف تكونين لعودة الحياة بهذا الكون سببي .

تملكها الحماس والسعادة والخجل فطالما دللها أبيها، إن الفتاة إن زاد دلال أبيها لها وثقته فيها جعل مهمة كُل رجلٍ بعده للتقرب منها صعبةً للغاية أما أشباه الرجال فمهمتهم معها تكون مُستحيلة، من حيت في كنف رجُلٍ حقيقي يستحيل عليها الحياة لجوار ضعيف يتصنع قوةً لا يملكها ليسلبها عزها وكرامتها، روفان هي فتاةً لها رأسًا جعلها أبيها تنافس قمم الجبال في ارتفاعها ولن تقبل الانحناء ولو كان ثمن رفع هامتها هو قطعها، لم تُجب أبيها على أسئلته أو كلماته

الرقيقة وتحفيزه لها سوى بنظرتها التي احتوت كُل معاني الحب و الصدق والثقة، إن كان الحب مُهمًا فالأهم لاستمراره هو الثقة فهي بمثابة الماء للزهرة بدونها تموت وكذلك الحُب دونما الثقة يذبُل حتى ينتهي بالموت؛ وصلا لنهاية طريق الجبل وبدأت تظهر على مرمى النظر منهما أطلال الجبل الأسود تقف أمامه (إليانور) في شموخ، وقف مهاب يواجه روفان وبخلفه الطريق إلى إليانور، نظر لها بتمعُن وأردف :

ـ الآن حان الوقت لننفصل فطريقكِ خلفي وطريقي خلفُك؛ فلترحلي يا ابنتي ولتتذكري دومًا أننا ضحينا بكِ حتى تعيشي أفضل منا، تذكري تضحيتنا وحبنا لكِ دائمًا .

أنهى كلماته واحتضنها وهي على عهدها من الصمت،

رحل كُلاً منهما في طريقهُ يهرول إليه دون الإلتفات خلفه، كليهُما يعلم وجهته ولكن لا يعلم أحدُهما قدره، اندفع كُلاً منهم يهرول مُبتعدًا لاهثًا تجاه هدفه خوفًا من التراجع عن قراره، اجتاحتهما إرادةً قوية بالعودة لأحضان الحياةّ معًا ولو كانت جحيمًا، فركضا يشقان طريقهما لوجهتما خشية التراجع كما ركضت دموع الفراق هربًا من سجن أعيُنهما،

لهثت روفان بعنفوان وقوة مُهرًا أُطلق سراحه للمرةّ الأولى بعد أسرِه مُنذُ وُلد، لم تتوقف عن الركض كان يُلهبها الحماس للتقدم،

كُلما اقتربت تتضح لها رؤية إليانور بشكلاً أفضل، هذا الدرع الذي يخرُج من قمته وجماله، لونهُ الذهبي اللامع، هؤلاء الحُراس بملابسهم البراقة وأسلحتهم أمامه، أملها بالالتحاق بأرض النور وخوفها من العودة للظلام وحياته البائسة، كُل ذلك دفعها للركض دون توقف حتى انتبه حراس النور لها وهي تندفع تجاههم، تحرك باتجاهها حارسين بسُرعة، استوقفها فوقفت تلهث وتلتقط أنفاسها في إعياء، أمهلها الحارسان حتى استجمعت قوتها ونظمت أنفاسها المُتقطعة، وأردفت بنبرة اختلطت فيها أنفاسها المُتقطعة بقوة :

ـ أنا روفان قدُمت من أجل الوصول إلى أرض النور .

نظر لها أحد الحُراس بتفحُص وأردف في ثبات :

ـ افتحي فمك لأرى أسنانك .

فتحت فمها دون أن تفهم السبب، فحص الحارس أسنانها وأردف :

ـ حسنًا فعُمركِ بين السادسة عشرة و الخامسة عشر عام، سوف نضعك مع باقي الوافدين حتى يحين موعد الرحيل .

أنهى الحارس كلماته واقتادها بصُحبة الحارس الآخر تجاه بُقعةً فسيحة لجوار الهرم الذهبي بها العديد من اليافعين يجلسون تحرُسهم فرقة من حُراس النور، تقدمت لتحتل موقعها لجوار فتاةً بدت لها

في ذات عُمرها، ابتسمت لها روفان فلم تُبادلها الفتاة الابتسامة، بدت لها لا تهتم لأمرها، أردفت لها بنبرة حنون تتودد لها :

ـ اسمي روفان، ما أسمك .

لم تُجبها الفتاة أو تلتفت لها، أتتها الإجابة بنبرةٌ حازمة من حارسة اندفعت تجاهها :

ـ توقفي عن تشتيت أذهان غيرك، صفّي ذهنك ولا تهتمي إلا بنفسك، هنا لا يهُمنا اسمك فكُلنا هُنا واحد لا يتميز أحدنا على الآخر، فلتستمتعي بمشهد الشمس والسماء وفكري بمُستقبلك واستعدي لرحلتك فهي صعبة، تأملي يا عزيزتي واحلمي فأنتِ على وشك الولوج إلى أرض النور والأحلام .

قطعت كلمات الحارسة أي أمل أو محاولة لها في التحدُث، لاذت بالصمت بعد أن تكشف لها سبب الصمت المهيب من الجميع، خاصةً بعد أن نظرت لها مجاورتها وابتسمت على حديث الحارسة لها، كأنما أرادت أن تُرحب بها في صمت فبادلتها الابتسامة وشردت في السماء تُشبع عينها وروحها من نور الشمس ودفئها بعد سنينٍ عِجاف، لم يكُن حال مهاب مثل حال ابنته بل كان أسوأ ألاف المرات..

لم يستطيع الركضُ مُبتعدًا عنها كثيرًا حتى توقف وقتلهُ الخوف عليها فعاد يُسرع خطواته خلفها يُراقبها، قطع نياط قلبه أنها لم تلتفت

ولو لمرة، كان يصرُخ من أعماق قلبه التعس أن تلتفت لمرةٍ واحدة، مرةً واحدة فقط يُخبرها أنه ما كان ليرحل قبل أن يطمئن أنها وصلت لهدفها ووجهتها، مرةً أخيرة يضُمها إلى صدره يُعلمها أنهُ يُحبها،

كم تمنى أن تلتفت لأخر مرة لتراه ويراها ولم تلتفت، أطلقت العنان لقدميها كأنها تهرُب من الموت بينما استمر يركُض خلف حياته وهي تتسرب من بين يديه وتتلاشى أمامه، لم يُصبه اليأس من أنها سوف تلتفت حتى توقف بعيداً يُراقبها حينما استوقفها الحُراس، أخبرهُ يقينهُ أنها سوف تلتفت تجاه تلك الصخرةَّ الكبيرة، بالتأكيد سوف يُخبرها قلبها أن أبيها ينتظر منها نظرةّ الوداع، هذا ما قالهُ لنفسه وهي تُحدث الحارسين، حتى صعقهُ هول رحليها معهما دون النظر للخلف..

سقط أرضًا وهو ينتفضُ فزعًا من هول الإجابة على سؤاله لنفسه، هل كان يقينهُ خطأً ولم تشعُر وحيدته به ؟!؛

انفجرت عيناهُ بالدموع فخرجت صرخاته تشُق صمت الكون المُحتضر لألم روحه المُمزقة، خاب أمله وضاع عُمره هباءً منثورا، ألم تتذكر كم كان يُحبها ويهتم بها ويُدللها، لم تحتاجه مرةً ولم يكُن حاضرًا، أ ضاع كل شيئًا قدمهُ لها فتناستهُ ولم تلتفت؟!، أم أنهُ لم يكون لها هذا الأب الذي يستحق أن تلتفت إليه لمرة واحدة قد تكون الأخيرة!..

كم من المرات على الإنسان تضيع آخر فُرصه دون أن ينتبه ليحيا باقي حياته تُصيبه طعنات الندم فتمزق روحه، نهض بصعوبة يجُر أقدامه وخيبةّ آماله خلفه، تحرك يحمل أحزان وألام الكون على أكتافه ودموعه تنهمر من عينيه، لم يُدرك أتلك العتمةّ هي عتمةّ ظلام الليل أم أنها عتمةّ الحُزن الذي أصاب قلبهُ فأظلمت عيناهُ، أتلك الحيوانات والضواري بالغابة لما تصرُخ بهذا الشكل ؟!..

هل تشعُر بمصيبته وتشاركهُ حُزنه ؟!، أتلك الغابة المُظلمة تُحبه وتشعُرُ به أكثر من وحيدته؟!، ظل يتقدم في حُزن ولم تتوقف عيناهُ عن البكاء، لقد اقترب كثيرًا من العودة إلى المُستعمرة وعليه تبديل حالته لاحتواء ألام جوري وأمها زهرة، إن وجعهما لفراق روفان سوف يكون مُدمرًا لهما وعليه طمأنتهما، لكن كيف لهُ أن يحمل لهما الطمأنينة و السكينة وهو لا يملكهم ؟!، شعر بوخزة قوية بظهره بين كتفيه دفعته للانحناء، سعل بقوة فشعر بسقوط شيئًا من فمهُ أرضًا !، مسح بكفه شفاه ليكتشف ما أصاب فمه، تلطخت يده بدماء اندفاع الدمِ هربًا من حنجرته تجاه فمه..

حاول الاتزان والوقوف بثبات ولم يتمكن، تخبطت قدماه وشعر بدوارٍ قوي سقط على رُكبتيه من أثره، فأصابته الوخزة الثانية بظهره، سعل بقوةً اكبر على أثرها فتلطخت ملابسه بالدماء ويديه، بدأ يلمح طيفهما ليتفهم ما أصابه، إنهم الحارسين المطرودين من المستعمرة عادا للثأر منه، واستعباد أهل المستعمرة من جديد،

فتربصا به في الغابة ليتمكنا منه وهو بأضعف حالاته، نظر لهم مُبتسمًا وتمنى لو يُخبرهما أنهما قد أراحا روحه من ألامها وحسرتها، شعر بوخزةً أخيرة لم يتمكن من تحديد مكانها بجسده المُنهك، سعلٍ لأخر مرةً بقوة ورحل عن هذا الكون المُحتضر، رحل مقهورًا مُمزق الروح والجسد، تأكد الجنديان من موته فقيدوه من أقدامه وقاموا بسحبه حتى دلفوا داخل المُستعمرة فوضعوا الجثة بالساحة الفسيحة وصرخ أحدهما بزهو بالغ :

ـ يا أهل مستعمرة العجوز، هذا هو مهاب قد قتلناه، والآن سوف نقتُل زوجته وأمها الساحرة، فلتسألوها إن كانت قد رأت ذلك في المُستقبل ؟! .

تجمع أهل المستعمرة وأصابتهم الصدمة من مقتل مهاب على يد الجنديان، هل سيعودان لاستعباد المستعمرة كما كان سابق عهدهما؟، ماذا سوف يفعلون بجوري وأمها العجوز فإنهم لن يرحموهما بالتأكيد، توقف أهل المستعمرة يترقبون ويُشاهدون في صمت كعادتهم، فهم لا يتدخلون لنُصرة مظلوم أو مساعدة أحدهم، الجميع يخشى على حياته ويتجنب المشاركة حتى وإن كان المظلوم زوجته أو ابنه أو شقيقه أو حتى رفيق عُمره!، اندفع جُنديٌّ منهم تجاه منزل مهاب يصرُخ على زوجته وأمها، فُتح باب المنزل وتقدمت جوري ومن خلفها أمها في ذهول،

ما أن وقعت أعينُ جوري على جُثة زوجها مُمددةً على الأرض ولجواره مطرقته حتى اندفعت تجاهه تصرُخ باسمه تحتضنه وتنتحب في جنون وفزعٍ لفقدها، لقد فقدت ابنتها في أول هذا اليوم و في أخره تحتضن جُثة زوجها فأي جحيمٍ سقطت فيه تلك المرأة، تقدم الجُنديان في غرور تجاه (زهرة) متوقفين على مسافةً منها يواجهانها وظهرهم لأهل المستعمرة وجثة مهاب، تحدث أحدهم لها بغرور وزهوٍ زائف :

ـ هل رأيتِ مقتل مهاب قبل أن نقتُله ؟، فإذا رأيتِ ذلك لمَ لم تمنعيننا ؟! .

أجابتهم بقوة وثقة دفعت الجميع للذهول :

ـ نعم رأيتُ مقتله، ولم أمنعه لأنهُ كان عليه التضحيةّ بوحيدته وعلينا أنا وابنتي التضحية بهما معًا .

أجابها الجندي الآخر في غيظ وخبث :

ـ وهل رأيتِ مقتلكِ أنتي وابنتك الآن على يدينا ؟ .

أجابته بذات الثقة والقوة :

ـ لا، لكنِ رأيتُ مقتلك أنت ورفيقك .

انتهت كلماتها على وقع صوت صرخات تمزيق وتهشيم عظام جمجمة الأول واختراق الرماح جسد الآخر من الخلف، اندفعت

جوري بمطرقة مهاب تهوي بها بكُل ما بقلبها من حقدٍ ومقت على هذا الكون تُهشم رأس الجُندي الأول فخر صريعًا من ضربةً واحدة، وأما لآخر فأنتهُ الطعنات من السيد (خوان) وزوجته(ماري)، حملت طعناتهم الحقد المزروع في قلوبهم تجاه الجنود على مدار أعوام الاستعباد والقهر، حملت الانتقام لمقتل الشخص الوحيد بالكون الذي رفض الظُلم ودافع عنهم فقُتل من أجل ثورته لهم، أصابت الصدمةّ والدهشة الجميع من هول المشهد، وصدق تنبؤات (زهرة) بالمستقبل، سقطت جوري على رُكبتيها تصرُخ وتنتحب وهي تنظُر لأمها وأردفت في حُزنٍ وأسى :

ـ الآن تفهمت سبب حُزنك حينما رحلت روفان، وتفهمت أيضًا عُمق كلماتك عن العدل والعدالة لكن هل سَتُقدر تضحيتنا يا أمي، هل لأحد أن يشعُر بكم القهر والحُزن بقلوبنا ؟! .

أتتها الإجابة من جوارها، امتدت يدي خوان وزوجته تُنهضانها وأجابها خوان بقوةً وثبات :

ـ إن الخير كنور الشمس لا تُبدده ظُلمةً وإن طالت، فيبقى الخيرُ دائمًا والعدل والعدالةّ هي الأصل وإن غابت؛ معروفًا واحد قدمه لنا مهاب ليُنقذنا فستنهض فينا شجاعةً غائبة ورغبة في العدل وتحقيق العدالة ورفضُ الظُلم، فلا تخافي ولا تحزني فنحنُ إلى جواركما ولو كان الثمن حياتنا .

أنهى كلماته لجوري واتجه نظره لزهرة التي بدت للجميع ثابتة بثبات الجبال لا يكسرها شيئًا!، فوجه حديثه لها :

ـ جميعنا طوع أمرك فأنتِ عرافتنا ومُلهمتنا ومنبع قوتنا، الأمرُ لكِ فماذا ترين ؟! .

ـ أرى الصبر والزمن، وحدهم من سيحكُم ما يحدُث غدًا .

***

-٤-

« إن ميلاد كل نهارٍ جديدٍ يحملُ الأمل كافٍ لغسل و
شفاء دماء وأوجاع مخاض كُلِّ ليلٍ مُتعسر باليأس»

.. علامةٌ مجهولة ..

.. العرافة العجوز ..

.. الطريق لأرض النور ..

بدأت الشمسُ تغيب فكان مشهد الغروب بديعًا بهيًا بقدرٍ لا يوصف أمام أعينُ روفان..

هي المرةّ الأولى التي ترى فيها الشمس والغروب، هذا الشفق الأحمر وهو يرحل ساحبًا هذا القُرص الذهبي مشهدًا لا تصف عينٌ جماله، كيف كانت تحيا بلا هذا الأمل وتلك الرؤية البديعة،

كل نهارًا ومساءً هو آيةٌ من آيات الجمال لن يشعُر بلذة هذا الجمال إلا من فقده...

أما من اعتاد وجود الجمال فيطمُسه الاعتياد في عينيه وقد لا يراه جميلاً !، لحظات التصافيّ والتأمل .

دفعت طاقة الأمل إليها فتخللت روحها وجسدها حتى أصبحت مثل جميع الجالسين في صمتهم وشرودهم، انتزعها من حالة التأمُل صوت الحُراس بضرورة الحركة لأن إليانور عليها المرور بمنطقةٌ

أخرى لالتقاط أكبر عددٍ ممكن من الأطفال واليافعين، تم اقتياد الجميع للتقدُم عبر بوابةً كبيرة بسفح الهرم الذهبي..

تقدمت روفان في تزاحُم مع من جاورتهم جلوسًا خارج الهرم الذهبي، دلف الجميع إلى الدخل فبدأت الدهشةّ تملأ عينيها حتى فتحت فمها من الذهول، أرضٌ حجرية فسيحةً لساحةً كبيرة، تصطف بها أجسامٌ عملاقة من الحجر لأجساد بشر برؤوس حيوانات تُمسك أسلحةً ذهبية من كُل جوانب الساحة، وجدت ممرً بأخر الساحة يقف عليه الحُراس وأشاروا للجميع بالجلوس أرضًا بمحافظةً على مسافةً متساوية قُرابةّ مترًا عن من يجلس يمينً ويسارًا وللخلف و الأمام..

لحظات وطاف الحُراس يحملون أواني بأيديهم من معدنٌ غريب عليها ثمارًا لم تعرف كُنهها، يُلقون الثمار أرضًا أمام الجميع في إهانةً بالغة طالبين من الجميع الانحناء بوجهه أرضًا والأكل كالحيوانات بدون استخدام أياديهم!، أُلقي الثمار أمامها وطلب منها الحارس الأكل فنظرت لهُ من مجلسها باحتقار وأردفت في قوة بصوتٍ مسموع للجميع :

ـ احمل طعامك وثمارك وارحل فما كُنت لأطعم من الأرض كالديدان أتظن أنك تهينني فما تهينون إلا أنفسكم بوضاعتكم تلك، أنا لا أحني رأسي فإن أردت أن تجعل رأسي تنحني عليك بقطعها .

نظر لها الحارس بقوة ثُم وجه نظره تجاه باب الممر بأخر الساحة فصدرت إشارةً من أحدهم هنالك فأومأ الحارس أمامها برأسه إيجابًا، انخفض على رُكبتيه وجمع الثمار وهي ترفع هامتها، نظر لعينيها وأردف :

ـ يجب وضع علامةً على رقبتك لرفضك الطعام .

أجابتهُ دون أن تخفض جبهتها :

ـ لك ذلك أما انحنائي فليس لك أو لغيرك .

أومأ لها برأسه قبولاً ودون على رقبتها من المنتصف علامةً لم تفهم كُنهها، اجتاحها الغضب والاحتقار لجميع من حولها وللحراس والمُخلص، أ هؤلاء حقًا هم حراس النور وتلك إليانور العظيمة ؟!، كيف لهم أن يحتقرون البشر بهذا الشكل ويعاملوهم بتلك الوضاعة والخسة ؟!، وكيف لهؤلاء المجاورين لها القبول بتلك الإهانة ؟!

انتهى الجميع من طعامه وبدأ الحُراس يُنهضون الجميع تجاه الممر للعبور، وقف حارسان يحملون عُصيّ يضربون كُل عابرٍ من الممر على ظهره أو قدمه أو مُؤخرته حتى يعبُر ؟!، استشاطت غضبًا من هول ما تراه من ذُل وإهانة،

أقسمت في نفسها أن اليد التي سوف تمتد تجاهها بسوء سوف تجاهد في قطعها فهي لن تقبل الذُل أبدًا، اقتربت من الممر

والحارسين، فلاحظت تدقيقهم النظر للعلامةّ على رقبتها، فتنحى أحدهم للخلف تاركًا لزميله مُهمة ضربها، رفع الحارس يدهُ بالعصا فلم يهبط بها عليها !، بل وجد نفسه ساقطًا على ظهره تعتليه روفان وتسدد له الضربات بعُنف !، حملت العصا الساقطة من يد الحارس وهوت بها على يديه، تجمعت عليها الحُراس تُقيدها فقاومت بعُنفٍ أكبر، لم يهدأ الأمر إلا على صوتٍ لم تعلم مصدره صارخًا :

ـ لا يلمسها أحدكم، ضعوا على عُنقها العلامة الثانية ودعوها تمُر .

هدأت جوارحها وسكنت ثورتها وهي ترفع هامتها بزهوٍ بالغ بينما دون أحد الحُراس العلامةّ الثانية على رقبتها، لتمُر عبر الممر القصير إلى ساحة أُخرى تُشبه التي كانت بها، فكانت ساحةً واسعة من الحجر المنقوش وتماثيلٌ لبشر ضخمة تدور حول الساحة بدا لها أن تلك هي الساحة الرئيسية بقلب إليانور، فكان بها ممرٌ بالضلع الأيمن وأخر يواجهه بالضلع الأيسر وأخر يواجه الممر التي خرجت منه، شدهتها الرسوم على الجُدران وألوان التماثيل..

لكن ذلك لم يكُن أكثر دهشةً لها من الدوائر والأشكال الغريبة المرسومة بداخل تلك الساحةً أرضًا، مرت الدقائق عليها سريعًا وهي تتفحص المكان حتى انتقل جميع من كان بالساحة السابقة إلى الساحة الجديدة واخذ الحُراس يطلبون من الجميع النوم في مكانه أرضًا، احتضن كُل فردًا نفسه بذراعيه مُجاهدًا في طلب

النوم، خاصم النوم عيونها كثيرًا وهي تُحاول تفسير واكتشاف سر تلك المعاملة المُهينة التي قابلتها من اللحظةّ الأولى!..

ما سر تعمُد هؤلاء الحُراس إهانة الوافدين إليهم ؟!، هل المُخلص يملكُ هذا الفكر المُظلم فإذا كان كذلك فلما يجمعنا ويعدنا بأرض النور ؟!..

هل الحُراس تتصرف بتلك الفظاظة من تلقاء أنفُسهم ؟!؛ جميعها أسئلةٌ لم تجد لها إجابات..

غفت عيناها من فرط الإجهاد، ,انتزعها من النوم صوت صرخات الألم فصعقها إيقاظ الحُراس للنائمين بضربهم بالأقدام فما يتلقى أحدهم الضربةَّ حتى يصرُخ ويتأوه ألمًا !، انتفضت يجتاحُها الغضب والصدمةَّ من ما تراه عيناها، صرخت في الحُراس بكُل قوتها :

ـ ماذا تفعلون يا قُساةّ القلوب، أجئتم بنا هُنا تستعبدوننا ؟! .

لم يلتفت لها أحدًا من الحُراس أو يُعير حديثها أي اهتمام، بدأ أحد الحُراس يقترب من تلك الفتاةّ الراقدة على مقرُبةَّ منها، إنها نفس الفتاةّ التي كانت تُجاورها المجلس أمام إليانور!..

لم تفهم كيف لتلك الفتاة ألا تستيقظ مع كُل تلك الصرخات، اقترب الحارس ليرفع قدمه يُسدد لتلك النائمة ضربته، قفزت عليه

(روفان) تستبق ضربته للفتاة لتشتبك معهُ بقوة تمنعهُ عنها، لم يُبادلها الحارس اللكمات أو الصفعات بل استسلم لضرباتها حتى أفرغت شُحنة غضبها تمامًا!، لتسمع نفسُ الصوت دون أن تعرف مصدره قائلاً :

ـ ضعوا لها العلامة الثالثة وأخرجوا الجميع لرؤية الشمس واستجماع الطاقة لمعاودة التحرُك.

نهضت عن الحارس الذي انسحب في صمتٍ غريب بينما اقترب منها أخر ودون على رقبتها تلك العلامة الغامضة التي لم تفهم منها شيئًا غير أنها الثالثة لها، انصرف الحارس فانحنت بهدوء تربت برفقٍ على كتف تلك الفتاةّ النائمة فما أن فتحت الفتاةّ عيناها حتى سألتها روفان في دهشة :

ـ كيف لكِ هذا النوم العميق مع كُل هذا الضجيج ؟! .

بدت ملامح الفتاةّ كأنها لم تفهم وأشارت بيدها لتفهم روفان السبب، إن الفتاة بكماءٌ صماء لذلك لم تنتبه لكُل ما حدث، احتضنتها روفان برفق وأشارت لها تجاه الممر فتفهمت الفتاة أن عليها إتباعها، عادت الفتاتان عبر الممر وهبطا إلى الخارج

بدا لهم أن النهار في بدايته لم تكُن كليهُما قد رأت شروق الشمس قبل هذا اليوم، أسرعت الفتاتان لاحتلال موقعهما لمُشاهدة الشروق، إن ميلاد كُل نهارٍ جديدٍ يحملُ الأمل كافٍ

لغسل و شفاء دماء وأوجاع مخاض كُل ليلٍ مُتعسرِ باليأس، جدد مشهد الشروق الأمل بداخلها ونظم أفكارها..

دفعها الأمل للتفكير العميق بروية خلف ما حدث بالأمس فتأكد لها أن الطريق لتحقيق نبوءتها صعب ويحتاج منها كل جُهدٍ وتعب، تذكرت كلمات جدتها الأخيرة لها أن ارض النور تهب الرحمة لمن يستحق!، شردت في مشهد الشروق تُشبع روحها من جوع الحاجة للأمن والدفء..

لم يكون الشروق ولا الأمن ولا الدفء ولا حتى الأمل موجود بذات اللحظات في مُستعمرة العجوز، بل ساد الجو الخريفي المُعتم يمنع كُل أمل بعودة الفصول الثلاث للكون، تسبب مقتل مهاب في اجتياح عتمة الظُلم والقهر قلب زهرة وابنتها جوري التي لم تتوقف عن البكاء مُنذ ليلتها الماضية، فلم يكون النهار على المستعمرة مُختلفًا بظلامه عن ما في نفس العرافة العجوز و وحيدتها، أطلق أهل المستعمرة على زهرة لقب (العرافة العجوز) وعُزلت حولها الأساطير في الغرف المغلقة على أصحابها، منهم من ظن احترافها السحر، ومنهم من ظن أنها تُجابه المخلص في امتلاكه الزمن..

لم تكون تلك الأساطير التي عُزلت حول زهرة في بادئ الأمر إلا محاولات بائسة من البشر للتعلُق بآمالٍ زائفة لا يؤمنوا بصحتها، إلا أنهم وجدوا في تلك الأساطير الدفء الغائب عن منازلهم وأرواحهم،

رحل جثمان مهاب في تلك الليلة بالطريقة المعتادة لأهل مملكة الجبال البيضاء بإلقاء جثةّ الميت بالبحر كقُربانً لوحوشه وعرفانً بما يُقدمه البحر لهم من أسماك تُبقيهم على قيد الحياة!..

كان المشهد مهيباً لأهل المستعمرة وهم يحملون المشاعل أمام البحر ينتظرون قبلةّ الوداع من جوري لجُثمان زوجها قبل حمله على المركب الصغير لإلقائه بالبحر، تقدمت جوري بثباتٍ غريب وقوةًّ لم يفهم أحدًا من أين أتتها..

تحجر الدمع بمُقلتيها وسكنت جوارحها بشكلٍ قوي، وصلت إلى موضع الجثمان لتنحني بهدوءً وتقبل جبهته في صمت، رفعت جبهتها وانسحبت في هدوء لتحتل موقعها لجوار زهرة التي كان موقفها أغرب..

بدت كالجبال راسخةًّ صامدة لا تُزحزحها الأحزان والأوجاع مهما بلغ قدرُها، نظراتها حادة وقوية تجاه البحر كأنها ترى وحوش البحر وتخاطبهم ويُخاطبونها!، حُمل الجثمان وانطلق المركب الصغير وألقي جثمان مهاب للماء على مرمى نظر زهرة و ابنتها..

عاد الجميع إلى المستعمرة يُغلق عليه بابه ويغزل أساطيره حول العرافة العجوز، بينما عادت زهرة وابنتها يحملون مرارةّ الفقد والحرمان وقهر الرحيل، وحدها زهرة كانت تعلم ما تشعُر به وحيدتها، وحدها كانت تعلم كم الصرخات السجينة بحلقها، كم

الذكريات المكبوتة بداخل جُدران قلبها المُغلق على زوجها وابنتها الوحيدة،تلك الذكريات لم تكون جالبة السعادة لها في تلك الليلة بل كانت الوقود لإشعال نيران الحزُن تلتهم قلبها بلا أمل لهُ في الهرب من جُدرانه مُحكمة الإغلاق..

لم تكون زهرة بعيدة عن ابنتها يومًا بل كانت دومًا مُستودع أسرارها و منبع الحكمة والتدبير لها في مختلف أمور حياتها..

كانت تعلم تفاصيل عشقها لمهاب مُنذُ الصغر، تعلقت جوري بمهاب بعد غرق مركب الصيد الصغير الذي كان يحمل أبيها و أبِ مهاب، تعلقت بهذا الطفل اليتيم الذي توفيت أمه وهو طفلٌ صغير، كانت طفولتهما معًا و شبابهما كذلك، حتى ذلك اليوم الذي قرر فيه مهاب الوقوف بساحة المستعمرة وطلب من زهرة الزواج من جوري بعد عودته بجُثة أحد وحوش الغابة ليُقدمهُ قُربانً لعروسه كعادة أهل المستعمرة..

لم تنسى زهرة تلك الفرحة العارمة على وجه جوري يومها، ذكريات مواقف مهاب الشُجاعة في التصدي لجنود نهاش ومنعهم الاقتراب من زوجته ومعشوقته، ذكرى ميلاد روفان و غيرها من الذكريات والمواقف جميعها كانت حاضرة في ذهن جوري وأمها، لم تجد زهرة كلمات لاحتواء أوجاع ابنتها فاحتضنتها بقوة تهمس في أُذنها :

ـ ابكي يا ابنتي فبكائكِ راحةٌ ليّ ولكِ .

نزعت كلماتها فتيل صمت تلك الثكلى لتنفجر صرخاتها تدوي في صمت الليل البارد، شقت صرخات ألمها الجُدران تُفزع جميع من بالمستعمرة، صَمت الكون بأكمله يسمع لحن الأحزان من حنجرة تلك المسكينة، وصلت صرخاتها قلوب كُل كائنٌ حيّ فصمت لمهابة مُصابها، انقطع عن الكون أصوات وحوشه وضواريه وأصوات رياحه و همسات البشر خلف أبوابهم المُغلقة، ألام الفقد وصرخات القهر وأوجاعه أقوى من أشد غرائز الإنسان قوة وهي الخوف، الفقد والقهر إن اجتمع على قلب إنسانٌ بدد خوفه فيُبدل روحه إلى صخرةٌ صماء تتكسر عليها أمواج الغرائز والشهوات الإنسانية..

هذا هو ما تمُر به جوري تلك المسكينة التي فقدت ابنتها صباحًا لتُقهر بمقتل زوجها ليلاً، لم توقفها زهرة عن الصُراخ والانتحاب طوال الليل بل أرادت لو تفعل مثلها لتستريح نفسها من الوجع، حتى ضعُفت قوتها و قُطع صوتها مع بداية اليوم الجديد، اقتربت منها زهرة وأردفت في نبرةٌ هادئة :

ـ الآن يا ابنتي أُريدكِ أن تستمعي إليّ بعناية، علينا الآن أن نُحارب لنتمكن من الحياة فلم يعود لنا أحدٌ يرعانا .

نظرت لها بأعيُن ذابلة ووجهٌ شاحب وأجابتها بنبرةٌ مبحوحة يائسة :

ـ لمّ نحيَّ ومن الذي يستحق أن نُحارب من أجله ؟! .

نظرت لها بقوة وأجابتها بثبات :

ـ نحيَّ من أجل روفان ونحارب من أجلها ولن نخذلُها .

ـ روفان رحلت بلا عودة يا أمي .

صرخت فيها بغضب :

ـ ستعود وهذا وعدي لكِ؛ انهضي وانفضي عنك أحزانك؛ ابنتك تُحارب من أجلنا بأرضٍ غريبة وتستسلمين للحُزن بأرضٍ نعلمها فأي ضعفٌ ووهن أصابك، ما كُنا لنُضيعها ونُضيع تضحية مهاب هباءً منثورا .

نهضت بصعوبة يعتصر قلبها الحُزن وهي تنظُر لأمها بأعينُ مُنكسرة وأردفت :

ـ هل حقًا سوف تعود روفان يا أمي ؟ .

أجابتها بحنوٌ بالغ وصدقٌ بدا جليًا بعينيها :

ـ ستعود يا ابنتي لتُحررنا ونُحررها، انظري للسماء وحديثيها سوف تسمعك وتشعُر بكِ .

احتضنت أمها بقوة تستمد من هذا الجسد القوي الذي لم يهزمه الزمن القوة، تحركت تجاه باب المنزل فحملت مطرقة مهاب على

كتفها وسكينهُ بين ثنايا ملابسُها والتفتت برأسها للخلف تنظر لأمها وأردفت في قوة :

ـ سنُقاتل يا أمي وسننتصر ولن تضيع تضحيةّ مهاب بحياته هباءً ولن تعود روفان لتجدنا مكسورين مهزومين فإن كان وعدك عودتها فوعدي لكِ أن تعد لتجدنا أقوياء بالنصر على الظُلم والظلام .

أنهت كلماتها واندفعت يُحركها وقود الحقد على الظُلام تجاه الغابة المظلمة، رغم زياراتها القليلة لتلك الغابة بصُحبة مهاب إلا أنها تحفظها عن ظهر قلب، كان مُهاب يسردُ لها أدق تفاصيل أيامه الطويلة بها، فخاخ صيده وكيف تعمل والأشجار الخريفية التي تُثمر، علمها ألا تقطع شجرةً من جذرُها بل تقطع الأفرُع الميتة فقط حتى تستمر الشجرة في الحياة، وحوش الغابة وكيفية الحماية منها عبر المشاعل و اصطحاب (نوي) في رحلات الصيد ليكُن حاميًا ومُحذرًا لها في لحظات الخطر..

نوي هو ذلك الوحش الذي تعرف عليه مهاب مُنذُ لحظةّ ميلاده بنباحه، لم تنسى جوري أول يومٍ لها تقع عيناها فيه على ذلك الوحش، كانت تسير لجوار مُهاب وفزعها هرولت نوي تجاههما ونباحه المُرعب لتختبئ خلف مهاب في فزع..

أصابها الذهول من وقوف نوي على قدماه الخلفيتين وتعلقه بيديه على صدر مهاب وهو يلعق وجهه في مُداعبة الأحبة!، مُنذُ

هذا اليوم قد تعرفت بنوي وعلمت أن بعض الحيوانات أخلص وأحن على البشر من أنفُسهم!..

تقدمت بخطواتها تدخُل إلى الغابة مُتجهةً إلى موضع الفخاخ المنصوبة فوجدت أحد تلك الفخاخ قد قبض بداخله على غزالاً، خلصتهُ من الفخ وقامت بنحره بسكين مُهاب الحديدي، شردت في مشاهدةّ لحظات احتضار الغزال بعد نحره، تلك الرقصة التي يؤديها أهي فرحًا بالرحيل عن هذا الكون البائس أم هي للوداع حزنًا على فراق أحبته ؟!..

انتزعها من هذا السؤال الصعب وتلك الأفكار الحزينة نباح نوي واندفاعه تجاهها مهرولاً، انحنت على رُكبتيها تحتضنه بشوق وهو يلعق وجنتيها بحُب، لحظات واندفع خلفها ينبح ويقفز وهو يوجه نظره تجاه المستعمرة، تفهمت سبب قفزه ونباحه فهو يبحث عن رفيقه وحبيبه، شعرت بسؤاله وتفهمته من عينيه كأنما أراد أن يعرف أين صديقه، نظرت لهُ بأعينُ دامعة وحدثته وهي تمسح بيديها على رأسه وتنظر لعينيه :

ـ لقد رحل رفيقك وحبيبي ولم يعُد ليّ غيرك ولا لك غيري ولن أتركك وحدك بعد الآن .

أتتها الإجابة بشكلاً أذهلها، دمعت أعيُن نوي كأنما فهم كلماتها وشعر بألم الفقد في قلبه ومزق روحه وجع فراق رفيقه، نبح كما لم ينبح يومًا من قبل، توالت صرخات نباحه على رحيل صديقه وهو يتلوى أرضًا يندُب حظه، لم يهدأ ويستكن ويتوقف أنين الألم بداخله إلا حينما اقتربت منه جوري واحتضنته وأمسكت رأسه بين يديها الحانيتين وأردفت في عطف :

ـ أنت لن تحيا وحدك بعد الآن سوف تأتي معي لتحيا لجواري، لن أتركك هُنا فمكان قلبٍ مثلك يجب أن يكون بين البشر لا الوحوش.

حملت جسد الغزال الذبيح على كتفها وعادت إلى المستعمرة يتبعها نوي، صُعق جميع من بالقرية واشتعل الرُعب في قلوبهم لرؤية نوي، وحشٌ كبير له أُنيابٌ كبيرة يتدلى لسانه خارج فمه، لهُ شعرٌ أسود كثيف، لم تُعير جوري لهم أي اهتمام ولا لرُعبهم من نوي..

تحركت تجاه منزلها وفتحت الباب وأشارت لنوي بالدخول فدلف إلى داخل المنزل وظل أهلُ المُستعمرة يغزلون أساطيرهم ويراقبون البيت وأدخنة الشواء ورائحته تتصاعد من المنزل، قتلهم الخوف والرعب من زهرة وابنتها، وتأكدوا أنها حقًا عرافة لتتمكن ابنتها من تسخير وحوش الغابة فيكون بين يديها بتلك الوداعة مُطيعًا لأمرها..

لم يكُن الرعب والخوف نصيب أهل المستعمرةّ وحدهم في هذا اليوم بل اجتاح كيان تلك الفتاةّ البكماء الصماء الواقفة لجوار روفان أمام إليانور في رحلة الوصول لأرض الخلاص، طلب الحُراس من الجميع العودة إلى داخل إليانور، تقدمت روفان و تلك الفتاة الرقيقة تجاه الهرم الذهبي فاستوقفهم الحراس، تحدث أحدهم وهو يُشير للفتاة لجوار روفان :

ـ تلك الفتاة خرساء صماء لا حاجة لنا بمعاقين معنا، اصعدي أنتِ أما هي فلا سوف نترُكها هُنا .

أنهى كلماته المسمومة بالحقد والكراهية وهو يُشير إلى روفان لتصعد، فأجابته بصفعةً من يدها وصرخت فيه :

ـ بل أنت من لا حاجة لك، اللعنة على قلوب من هُم مثلك أيُها الجاحد، أصعد معها أو نبقى كلينا .

عاد ذات الصوت يتكرر من جديد ولم تعرف مصدرهُ أيضًا صارخًا :

ـ لقد اتخذت قرارها ولم تعود هنالك علامات لها، اتركوهما لنتحرك .

انسحب الحراس وجميع من كان بخارج إليانور إلى الداخل ولم يبقى بالخارج غيرها هي ورفيقتها، ظلت تُراقب انسحابهم بهامتها

المرتفعة دون أن تنخفض جبهتها، أُغلق الباب وأعينُها تتابعه في ثبات دون أن يطرفُ لها جفنٌ..

بدأت إليانور تبتعد ويبتعد معها الحُلم بالوصول لأرض الخلاص، ولم تتحرك ظلت على ثباتها تُراقب في قوةً وثبات حتى ربتت رفيقتها على كتفها برفق بعد أن اجتاح الرُعب والخوف كيانها بعد حلول الظلام من أثر رحيل إليانور عنهم تسألها بالإشارة :

ـ ماذا حدث ولما تُركنا هكذا للظلام من جديد .

أجابتها بالإشارة قائلة :

ـ إن الظلام بالقلوب ولم يكون يومًا بالكون، اطمئنِ سنصل فنبوءتي تبدأ بأرض الخلاص ولن تنتهي هُنا ونحن بالطريق إليها .

ما كادت تُنهي إشارتها لرفيقتها، حتى أصابت تلك الفتاة رعدةً قوية وقفزت لأعلى وهي تُشير بيدها خلف روفان كأنما الموت خلفها، استدارت روفان لترى سبب فزع صديقتها لتنفتح حدقتي أعيُنها على اتساعها من ما وقع عليه نظرُها .....

***

-٥-

«الجوع هو أحد أفتك غرائز الإنسان شرًا وإن سيطر عليك أصبحت إنسانيتك في خطرٍ حقيقي، من يستحق أن يكون إنسانً هو من يستطيع الحفاظ على إنسانيته أمام أفتك غرائزه البشرية»

.. سماء الحرية ..
.. رحلة مُدبرة ..

أصابت خناجر كلماته المسمومةَّ روحي، دفع سُم الحقد والكراهية الذي أصابني من حديثه دمي للغليان بأوردتي، انتفض كُل جُزءٍ بجسدي فزعًا من هول كلماته، لم أشعُر إلا وأنا أصفعه على وجهه وأُجيبه بأني لن أتحرك بدون تلك الفتاةّ المسكينة، فما ذنب تلك الفتاة في أنها صماءٌ بكماء؟!، هل تملك لنفسها حق الشفاء من ما أصابها وتمنعه ليُعاقبها هذا اللعين ومخُلصه ؟!..

توهمت أن كلماته تلك هي أسود وأظلم ما سمعتْ طيلةّ حياتي، حتى سمعتُ ذلك الصوت الغريب يُصدر أمرهُ بتركنا في عالم الظلام الموحش وحدنا ليخيب ظنِ وأتعلم أن الحياةّ على هذا الكون حقًا تنتهي و أننا نحيا أحلك أيام الأرض ظلامًا وشرًّ..

اخترقت كلماتهُ أُذني ليُضيع بها أمليّ، أظلمت الحياةّ من جديد واعتراني شعور الضياع والتشتُت بأرض التيه، غَرس نصلهُ المنقوع بالسُم الحقد في صدري ليُمزق نياط حُلمي..

أمسيتُ أُقاتل في سجنِ ألاف الرعدات والصرخات بجسدي، انسحب الحُراس وجميع من كان معنا من البشر في خسةٍّ ووضاعة دون أن يلتفت أحدًا لقهريّ!، كيف تركنا الجميع ورحل ولم يثور أحدًا من أجلنا، هل حقًا ما أُشاهده يحدث فعلاً أم أنه كابوسًا مُفزع ؟!..

إن إليانور تنسحب وتبتعد لينهار برحيلها حُلمي وتضحية أبي وأمي ونبوءةّ جدتي، أردت لو أصرُخ فيهم وهم راحلون أنهم جميعًا يستحقون الموت والدمار بما فيهم ذلك المُخلص ورجاله، إنهم أشد شرًا من نهاش وجنوده، ألام وأوجاع تلك السنوات البائسة المنصرمة من حياتي تجمعت كُلها على أكتافي في لحظة، أحلامٌ وأفكارٌ عن المستقبل المُنير نسجتها بخيوط الأمل الواهية فتقطعت جميعُها بسكينُ اليأس تبددها رياح الظلام من جديد، انتزعتني تلك المسكينةّ خلفي من حالة التمزق بداخلي بسؤالها عن سبب تركهم لنا، تحتم عليّ طمأنتها فلا ذنب لها لتُعاني من الفزع على مستقبلها الذي يتبدد أمامها، وجدتني أطمئنها بقوة وأؤكد لها وصولنا أرض النور ولو لم أكون أعلم مصدر تلك القوة والثقة في حديثي لها، لم أتذكر إلا نبوءة جدتي ليّ، كانت بمثابة اليقين في نفسي والنور في عيني..

ما أن أجبتها حتى قفزت فجأة تكتمُ فمها كأنما رأت الموت يهرول خلفي تجاهنا في فزعٌ حقيقي ارتعد لهُ كاملٌ كيانها!، استدرت في قلق أُخفي فزعٌ حقيقي اجتاح روحي أُغلقتُ قبضتي يدي على ما بقي من قوةٌ بجسدي،

صعقني هول ما وقعت عليهُ عيني، اندفعت تجاهُنا مجموعة من حُراس النور تمتطي الأحصنة تُسرع بخطواتها تجاهنا، إن هذا الكائن المدعو حصانً ليس أسطورةً فهو حقيقي!، ولكن ما الذي عاد بهؤلاء الحُراس و ما يُريدون منا ؟!..

توقفت الخيول بفرسانُها أمامنا مُباشرةً، ترجل عن الأحصنة فرسانها يتقدمهم أحدهم، لهُ بشرةً سوداء وجسدًا قوي يرتدي ملابس الحراس ودروعها ويعتمر خوذته على رأسه، توقف أمامي ينظر لي بتفحُص فلم أهتز ولم يطرف لي جفنٌ، أومأ برأسه قبولاً ونظر للفتاةّ على يميني للخلف قليلاً وابتسم، التفت لأفهم سبب ابتسامته فرأيت الفتاة تبتسم إليه وتهز رأسها لهُ تأكيدًا!،

عُدت بنظري له فلم أعُد أفهم شيئًا فتحدث إليّ وهو يُشبك يديه خلف ظهره :

ـ بالتأكيد تشعُرين بالدهشة والتيه وتحتاجين لتفسير .

وقع صوته على مسامعي مألوفًا للغاية، فتابع حديثه ليُجيبني قبل أن أسأله قائلاً :

ـ أنا (ون) قائد إليانور وجيش النور وأنا صاحب الصوت الذي كُنتِ تسمعينهُ مع كُل أزمةً تفتعلينها، أما تلك الفتاةّ خلفُك فهي (أورجينا) وهي واحدةً من أكفأ جنودي .

أصابتني كلماته بالصدمة واعتلت وجهي دهشةّ البُلهاء ولم أستطع إجابته فتابع حديثه:

ـ يبدو ليّ أن الأمر يُذهلك!؛ القادم سوف يُذهلُكِ بشكلٍ أكبر فماذا لو أخبرتك أن رحلة إليانور تلك المرة لم تخرُج إلا من أجلك وأننا لم نلتقط غيرك؟!.

فقدتُ الإحساس والزمن والرؤية البصرية للحظة حلقت فيها أُحلل المشهد مع أفكاري بعيدًا عن العالم وحدي، تقدم نحوي يُقدم الأمل في كلماتٍ أضاء بها دربي، ارتفعت لكلماته دقات قلبي، بدد بحديثه ذُلِ وقهرِ، سقى شُجيرةّ اليقين بنبوءتي في صدري، أزهرت بأسئلته بساتين وردي فخان قطاف ثِمارُ زرعي، عاد ضوء الشمس يُنير حياتي يُحلي ليَّ المُرِ، فهربت ابتساماتي رُغمًا عني ليمتلئُ بها ثغري، فتابع حديثه يُعيدني من سماء فكري مُتعجبًا من أمري :

ـ يبدو أن أسئلتي أصابتكِ بقليلٍ من الاضطراب، فلنتحرك وسوف أشرحُ لكِ بالطريق كاملِ الأمرِ .

ألقى كلماته وأشار للجميع بامتطاء الأحصنة، ارتقى الجميع هذا الكائن الأسطوري بما فيهم ون بينما أصابتني حالةٌّ من السعادة والدهشة من هذا الجمال الذي أُشاهده لأول مرةٌّ بحياتي..

بسط (ون) يده لي من أعلى فرسهُ الأبيض الثلجي، إلتقمت يدهُ ينتشلني من ضحالة الحقد بأرض الظُلمات لأعلى أمامه أرتقي عالم السحر والجمال أُلامس نجوم السماء بيدي..

ارتفعت نغمات الحصان صهيلاً يُطرب أُذني، أطلقنا لهُ العنان يُحلق بنا في سماء الحُرية تجاه إليانور، نسائم الهواء العليل تُعبئ صدري وتُطاير خُصلات شعري، جمالاً ونعيمٌ لم تلمسهُ روحي قبل هذا اليوم، الآن فقط علمت كم البؤس الذي كُنت أحياه..

لم يتوقف الحصان عن العدو حتى وصلنا لسفح إليانور، هبط (ون) عن الحصان وحملني بيديه مُنهيًا رحلتي مع نجوم السعادة عبر سماء الحرية، هبطت إلى الأرض إلا أنني شعرت أن روحي لم تهبط معي، لقد عشقت التحليق وما كانت لتهبط من فضاء الحرية لسجنُ العبودية أرضًا..

تسلم الجنود لجام الحصان من يده، فُتح باب إليانور فأشار لي بيده لأتقدم بالسير إلى الداخل، دلفتُ إلى ذات الساحة التي كان الإطعام فيها مُهينًا، لكن الوضع كان مخالفًا تمامًا في تلك المرة كان الجميع يجلسُ أرضًا في صفوف يواجه كُل فردٌ آخر تفصل بينهم أواني الطعام و كؤوس الماء، تقدم بخطواته تجاه موضع طعام مُعد لشخصين..

جلس وأشار ليّ بالجلوس وبدأ أكله بينما أصابتني حالةً الصمت والسكون في حرم هذا النظام والجمال من مشهد الجميع وهم يتشاركون طعامهم وملابسهم البيضاء من غير سوء وابتساماتهم التي تُزين وجوههم فخولتهم شموسًا مُنيرة، قاطع شرودي صوته وهو يأكُل بقوله :

ـ أنتِ لم تأكُلي من الأمس فإن لم تأكُلي سوف تضعُف قوتك وأنا أحتاجك بكامل قوتك وتركيزك .

كانت معدتي تُصفق لكلماته من أعماقها، فالجوع كان ينهشها ويجب إخراسها قبل أن تقوم بكركرتها لتفضح أمري، التهمت طعامي بنهمٍ شديد حتى شعُرت بالخجل من فعلي، الجوع هو أحد أفتك غرائز الإنسان شرًا وإن سيطر عليك أصبحت إنسانيتك في خطرٍ حقيقي، من يستحق أن يكون إنسانً هو من يستطيع الحفاظ على إنسانيته أمام أفتك غرائزه البشرية..

لم أتوقف عن الأكل حتى بدأت معدتي تجأر من الضغط فكادت تنفجر، نظرت إليه بخجلٍ وأردفت بنبرةً تحمل نفس نظراتي:

ـ أعتذر عن بشاعتي في الأكل، فالجوع لا يرحم ويُخرج أسوأ ما في البشر .

نهض من جلسته فتبعته بتثاقُل من تُخمة الطعام، لم يتحدث مُطلقًا وسبقني في سيره فتبعتهُ حتى وصل مدخل الممر الواصل إلى الساحة الرئيسية بقلب إليانور، وبدأ الحديث وهو يتحرك دون أن يلتفت ليّ :

ـ الآن يحق لكِ أن تفهمي سبب ما حدث معكِ مُنذُ التقينا بكِ، تلك الرحلة بالكامل مُدبرة ومقصود كُل ما حدث فيها .

توقف عن السير واستدار يواجهني وهو يقف بمنتصف الساحة الرئيسية لإليانور وتابع حديثه :

ـ المُخلص يستطيع التنقل عبر الزمن بالماضي والمستقبل والانتقال لأي مكانٌ بالكون في لحظات، فلا يمنعهُ عائق أو يردعه بابٌ مغلق!..

لقد سرد ليّ كُل ما فعلتيه فهو شاهده بالمستقبل مثلما تعايشنا فيه معكِ حاضرًا، إلا أن كلماته أمام مجلس النور وهو ذلك المجلس الذي يُشرع مبادئ أرض النور ما كان ليقبل بدخولكِ قبل حدوث الأمر حاضرًا، لا لعدم ثقة المجلس في المُخلص وإنما احترامًا لأهم مبادئ أرض النور وهو، أنهُ لا يُمكن إخفاء حقيقة عن شعب النور أو الحُكم بأي أمرٍ قد يضُر أرض النور وشعبها بشكلٍ مُنفرد .

أومأ برأسه إيجابًا وابتسم ليّ وتحرك تجاه باب الممر الشرقي فتبعته وتابع حديثه :

ـ لا أُخفيّ عليكِ أن كامل المجلس وأنا شخصيًا لم أكون أتخيل أنكِ حقًا قادرة على ما سرده المخلص وشاهدناه، أنتِ بما فعلتيه تجاوزتِ سنواتٍ كاملة نستهلكها في إعداد الوافدين علينا في عُمرك .

توقف بمنتصف الممر واستدار يواجه أحد التماثيل على يميننا وكان لجسد رجُلاً فضغط على قلبه، لينفرج الحائط كاشفًا عن درجٍ سري !، تقدم إليه صعودًا فتبعته في ذهول من ما أسمع وأرى، صعدنا إلى ساحةٍ اصغر لكنها كانت أكثر إبهارًا من كُل ما رأيت حتى الآن، جميع جُدرانها شفافةً كاشفة لما هو خارج إليانور، بها مقعدًا لامع باصفرار كشمسٍ متوهجة، يعلوه تمثالٌ بذات اللون لوحشٍ من وحوش السماء يفرد جناحيه وأقدامهُ كأقدام نفس الوحش، جمالهُ لا تصفه عين ولم يخطُر بخُلدي يومًا، جلس على المقعد ونظر إلي بتمعُن وتابع حديثه :

ـ الآن الحقيقة واضحةً لنا فأنتِ تخطيتْ أعوامٌ طويلة من الإعداد ولكنِ لن أسمح لكِ بدخولها قبل أن تمُري عبر (قلاع النور والحكمة)، حتى تتعرفي على أرض النور ولا تُصابِ فيها بتلك الصدمة التي تُسيطر عليكِ فتمنعكِ الحديث .

لم أستطيع أن أُجيبه، أردتُ أن أصرُخ فيه أني لم أُصدم بل يقتُلني الشغف للمعرفة ولا أُريده أن يتوقف، كم تمنيت أن أخبره أني أُحلق في السماء أُراقص السعادة على أنغام الأمل ولكنِ لم أُجيبه أو أنطق ولا أعلم لمّ أجهض عقلي كُل أجنةّ أفكاري حتى عقُر فمي عن ولادةّ الكلمات، حتى تذكرت جدتي فكان ذلك عهدي معها طوال أُفكر ولا أتجرأ على السؤال حتى تنجلي أمامي الحقيقة من تلقاء نفسها، بيد ليّ أن سبب صمتي هو الحكمة فالحُكماء وحدهم يصمُتون في حضور عظمة الحقيقة والمعرفة، بدا أنهُ يأس من محاولة إشراكي الحديث معه فسألني بُغتة :

ـ من أين لكِ بتلك المعرفة المُنيرة ؟!، من الذي علمكِ الثورةّ على الظلم والإيثار ونُصرة الضعفاء ؟!.

أجبتهُ وأنا أصُب جحيم الماضي بعيني في مُقلتيه بنبرةً راسخة :

ـ من الظُلم والظلام .

عاد بظهره للخلف وقُطب جبينه وبدا ليّ مذهولاً من كلماتي فسألني :

ـ كيف ذلك فلم أفهم مقصدك ؟! .

استدرت تجاه الجدار الشفاف خلفي أنظُر للأرض والقمر بالسماء والنجوم وهي تتلألأ ونحنُ نتحرك وأطلقتُ سراح وجع من محبسه ليتحرر حديثًا :

ـ كيف لك أن تفهم وأنتَ تحيا تحت نور الشمس وضوء القمر؟!، كيف لكَ أن تفهم وأنت تبيت خلف جُدران بواباتك الصُلبة بمأمنٍ عن غدر الظلام وظُلم ملوكه وجنوده؟!..

كيف لك أن تفهم وأنت لا تمزق خوفًا ورُعبًا على نفسك وعلى أحبابك في كُل لحظة من خطر تعرُضكم لاغتصاب أو نهب أو قتل، كيف لكَ أن تفهم وروحك ساكنةً بين ضلوعك بينما روحي لم تسكُن يومًا حتى وأنا خلف بواباتك أتمزق من الخوف والقلق وتتقطع روحي بنصل الفقد، الظُلم والظلام رسخَّ الخوف بداخلي فالخوف غريزةً بشرية وهو جنينٌ ولِد مسخا بشعا ينهش بنهمٍ وشراسة أمنُ روحي وجسدي فأصبحتُ أُحاربهُ أينما وجدته لأنتصر عليه أو أقتل فأستريح وتسكُن روحي وتنتهي تعاستِّي .

ارتعد جسدي بقوة للمسه كتفي، استدرت أواجهه في فزع فما أن وقعت عيني على ملامحه حتى أصابني الخجل من ردةّ فعلي، كانت كامل ملامحه تحمل الحُزن والأسى لكلماتي وتحدث إليّ بلهجةً هادئة يُطمئنني :

ـ إني أُشفق عليكِ ويُحزنُني مُصابك وأُقدر حياتك السابقة بصعوبتها، لكنِ أُطمئنك فكُل ذلك المُرّ قد مرّ وأمامكِ حياةً جميلة لتحيها، والآن سوف أترُككِ هُنا وحدك تنامين على مشهد القمر وتستيقظين على الشروق .

تحرك تجاه باب القاعة وتوقف قبل الخروج واستدار إليّ مُتحدثًا :

ـ لا تخافي فتلك الجُدران كاشفة للخارج وذلك حقيقي ولكن الأحق أنها أصلبُ من الفولاذ ولن تسقُطي منها، أتمنى لكِ نومًا سعيدًا .

رحل وتركني بتلك النافذة على الكون وحدي، تحركت تجاه الجدار أتأكد من كلماته فرفعت سبابتي اليُمنى بحذر أحاول اختراق هذا العالم المفتوح أمامي فشدهني صدق حديثه،

توقف إصبعي يُمنع عن المرور كأنما يواجه حائطًا من الصُلب!، جلست أرضًا وأنا تغمرني السعادة من رؤية الأشجار ونحنُ نعبرُ من جوارها و النجوم في السماء تتلألأ في مشهدًا بديع، أحيانًا تشعُر أنك وحدك ولن يربت على قلبك التعس سوى يديك المُخضبتان بالألم، فتتفاجأ أن القدر رتب لك يدًا تُداوي وجعك وتشعُر أنها كانت بداخلك مُنذُ ميلادك،

لم أشعُر متى أو كيف سقطت في نومٍ عميق لم أحصُل عليه مُنذُ فتراتٍ طويلة، أيقظتني أطراف أناملٍ رقيقة على كتفي، انفرجت جفوني فوقعت عيني عليها، كانت (أورجينا) توقظني باسمة وعاجلتني بحديثها فور نظري لها :

ـ أتمنى ألا تكونين غاضبةً مني، جئت لإيقاظك بناءً على طلب السيد (ون) .

اعتدلت في جلستي أواجهها وأجبتها ضاحكة :

ـ الحقيقة أني لم أغضب من إيقاظك ولكنِ غاضبة من ادعائك أنكِ بكماءٌ صماء طوال رحلتي، انكِ شريرة بشكلٍ مُخيف فلم أتشكك للحظة أنكِ تُجيدين الحديث والسمع .

تعالت ضحكاتها وأجابتني :

ـ بالتأكيد أعلمكِ السيد ون أني ما كُنتُ لأُخالف تعليمات قائدي، بأرض النور سوف تتعلمين أن جميعنا تروس صغيرة في آلةّ الحياة بدون أحدنا تتوقف الآلة وتنتهي، فلا يُمكن لأحدنا التخاذل في تأدية دوره لثقته أن باقي من خلفه سوف يتضرر .

ـ تفهمت ذلك ولكن الآن ما الذي سوف يحدث ؟! .

تَعجبت من سؤالي وأشارت بيدها تجاه الجدار الشفاف خلفي وأردفت :

ـ يبدو أنكِ لم تنتبهي أننا قد وصلنا لبوابات أرض النور .

انتفضت واقفةً في دهشة من نفسي لم أدري إلا بكلماتي تخرج من فمي غضباً :

ـ كيف ضيعت على نفسي فُرصة مشاهدة لحظة الوصول لأرض النور ؟! .

أجابتني مُبتسمة وهي تُدير جسدي لأواجه الجدار وأردفت في هدوء:

ـ لم يضعْ منكِ شيئًا فأنتِ أمام أسوارها، سأتركك وحدك حتى تُشبعي عينيكِ ولكن لا تتأخري فنحنُ بانتظارك بالساحة الوسطى من إليانور لدخول أرض النور .

رحلت وهي تظن أني أُشاهد أرض النور ولم تكون تعلم أني لم أملك جرأة فتح عيوني للنظر بعد، انقطع صوت خطواتها من أُذني فعلمت أنها رحلت، وقعت في نفسي معركةً ضروس بين فتح عيني وإغلاقها..

كم كُنت أتمنى أن أرى تلك الأرض بشكلٍ مُفاجئ، أما الآن فإني أخشى ألا تكون تلك الأرض كما تخيلتُها فتُصبني الصدمة والخيبة، قررت أخيرًا التغلُب على خوفي وفتح جفوني ببطءٍ شديد فصعقني هول الرؤية..

اجتاحتني الصدمة والخيبةً من ضعف خيالي من جمال ما أرى، كُنت أتخيلها أرضًا بها غابات ومباني بسيطة وأسوارٌ خشبية مثل مستعمرة العجوز وما يجعلها تختلف عنا أنها ترى نور الشمس والقمر فحسب؛ حتى أذهلني ما أرى فكانت إليانور تقف على شاطئ نهرٍ عظيم صافيٍ في زُرقته صفاء السماء في لحظات الشروق،

على الجانب الآخر للنهر يقع سورًا مرتفع بيد لي أنهُ من الحجر به بوابةً كبيرة للغاية يحرُسها من أطرافها تمثالين ضخمين للغاية لأجساد

بشرٍ برؤوس وحوش يُطبقون بأيديهم على حرابهم الطويلة، أما البوابة فكانت كبيرة للغاية لامعة كإليانور فتيقنت أنها من نفس المعدن، الأرض شاسعةً للغاية لم تُدرك نهاية الأسوار عيني، ولا تكوين ما بخلف تلك الأسوار بدقة، إلا من رؤية هرمٍ بقلب الأرض كان ضخمًا بالقدر الذي سمح لي رؤية منتصفه وقمته، يسبقه تمثالاً توقعته ضخمًا للغاية لرؤيتي رأسه فكانت تُشبه رأس وحش السماء الكرسي خلفي بالقاعة يحمل فوق رأسه قُرصًا مُستديرًا كبير يُشبه الشمس..

شردتُ كثيرًا في هذا المشهد العظيم أمامي، حتى ألهب علقي وجسدي الحماس للدخول إلى تلك الأرض واكتشاف أسرارها؛ اندفعت في هبوطي من القاعة إلى الساحة تشتعل بقلبي نيران الشوق إلى الوصول لقلب تلك الأرض المُنيرة..

كانت تنتظرني أورجينا فأسرعت تقودني خارج إليانور في صمت إلى مركبٍ كبير كان ينتظرنا على شاطئ النهر للعبور إلى بوابة أرض النور، وكان عليه ون ينتظرنا، ما أن دلفنا إلى المركب حتى أمر الحُراس على جانبي المركب بالتحرك، فكان على كُل جانبٍ للمركب قرابة عشرون حارس في تتابع يُمسك كُل واحدٍ منهم مجدافٌ، ..

اندفعت المركب بقوة تجاه حلمي وأملي على وقع نغمات الأمل الصادرة من ضربات المجاديف للماء، فرقصت روحي رقصة

السعادة وتيقنت أن كلٍ من أخبرني يومًا أنِ لن أصل كان مُخطئًا وسوف ينظر لي بدهشةً عظيمة حينما يراني وقد حققت حُلمي .....

***

-٦-

«أحيانًا تكون أضيق الأماكن أكثرها اتساعًا كقلبك؛
وأحيانًا لا يكون الوطن أرضًا فقد يكن إنسانً»

.. مستعمرة العرافة العجوز ..
.. بعد ثلاث أعوام ..
.. نبوءة النور ..

تجمع الوافدون حول النار ليلاً بقلب الساحة يلتمسون الدفء، يسردون ألاف الأساطير عن النبوءة التي أطلقتها العرافة مُنذُ ثلاثة أيام لتُضيء أرض الظلام بنور الأمل!، إلتقمت الأرواح المُنهكة والقلوب المُمزقّة النبوءة وتمسكت بها كأخر خيوط الأمل للنجاة من جحيم الكون والفزع من الموت المُحلق فوق رؤوسهم،

أنارت العرافة حياتهم المُظلمة بقبسٍ من الرحمة طمأنت به أرواحهم الفزعة فاندفع جميع البشر بمملكة الجبال البيضاء قاصدين مستعمرة العرافة العجوز يلتمسون الأمن بوجودهم لجوار العرافة، سأل أحد الوافدين السيد (خوان) بشبقٍ للمعرفة :

ـ يا سيدي لنا عندك سؤالا نُقسم عليك بكُل ما هو غالي عليك أن تُصدقنا إجابته، هل حقًا العرافة تنبأت بعودة النور وهل حقًا لها القُدرة على التنبؤ بالمستقبل ؟! .

ألقى الحطب للنار من يديه يُزكيها وجلس لجوار زوجته، بحث بعينيه بين الجالسين حول النار بشكلٍ دائري عن سائله فكان أغلبهم من الوافدين من مملكة الجبال البيضاء، وجه نظره لمحدثه الذي يواجهه على طرف الدائرة المقابل له ووجه إليه حديثه قائلاً :

ـ سؤالك هذا يحتاج لأن أسرُد عليكم ثلاثة أعوام من النبوءات حتى وصلنا لنبوءة النور .

سألهُ في شغفٍ أكبر :

ـ وهل تحققت جميع تلك النبوءات ؟! .

أجابه بثقة وقوة حملتها نبرته وملامحه :

ـ جميعُها بلا استثناء .

ألقى جملته وهو يزفر نفسًا عميقًا، بدا كأنما يتأهب لرحلةٍ طويلةٍ فألهب حماس الجميع ودفعهم للصمت والتركيز بحديثه الذي أطلقه بعد أن صمت للحظات وبدأ قصته مُنذُ ظهور (نوي)، كيف أصاب المستعمرة الفزع من هذا الوحش الذي جلبته (جوري) من الغابة،

سيطر الخوف والقلق على الجميع فكيف ل(زهرة) وابنتها السيطرة على وحوش الغابة بهذا الشكل ؟!، في الصباح بدأت المستعمرة تنتفض كعادتها يتوجه كل فردٍ فيها إلى عمله ليتمكن من البقاء على قيد الحياةّ هو و أسرته، وكان هذا الوحش يجلس

على باب المنزل مُتأهبًا للفتك بمن يقترب منه أو من أهل الدار، ما أن خرجت إليه جوري حتى قفز يتعلق على صدرها ويلعق وجنتيها في عشقٍ غريب لم نتفهمه مُطلقًا في حينه، تعددت رحلات جوري ونوي عبر الغابة ودارت الحياةّ بشكلٍ طبيعي و بدأ هذا الوحش يعتاد على أهل المُستعمرة ويعتادون وجوده؛ حتى ذلك اليوم الذي استوقفت فيه (زهرة) السيد (خوان) بعد عودته من الصيد بالبحر، كانت تجلس بمُنتصف الساحة لجوار النار المُشتعلة قبل نهاية النهار بقليل، رفعت صوتها تُنادي باسمه فهرول إليها مُلبيًا :

ـ رهن أمركِ يا عرافتنا .

نظرت إليه وأجابته مُبتسمة :

ـ لن تبيت بمنزلك أنت وماري الليلة،سوف تسهرون معي بأعلى منزلي، اذهب ولا تتأخر إن ليّ حديثًا طويلاً معكما .

تحرك مُبتعدًا عنها تكاد تحمله قدماه، هو و جميع من بالمستعمرة يعلم سهرها ليلاً والشرود في السماء المظلمة، لم يفهم أحدهم ما البديع في عتمة الليل وما الجميل في مُخاطرةّ الجلوس فيه عُرضةّ أن تكون فريسة أحد وحوش السماء الجائعة!، ولكن كيف لهُ أن يرفض طلبها وهي أم جوري التي قُتل زوجها من أجل دفاعهُ عنه وعن زوجته بينما كان الجميع يُغلق عينيه عن رؤية آلامه ويصُمون أذانهم عن سماع صرخاته، لم يدري كيف وصل لمنزله بينما كانت

خُطواته مُترنحة تصطدم بجُدران الخوف، فزعت ماري واندفعت تجاهه فور دخوله إلى المنزل سائلةً :

ـ ما الذي أصابك ؟!، لمَ تحمل ملامحك كُل هذا الخوف والقلق ؟!.

نظر إليها وتحدث بلهجةً مُضطربة :

ـ (زهرة) طلبت مني أن أصحبكِ إليها لنقضي الليل برفقتها، تقول أن لديها حديثًا لنا! .

صعقها حديثه فأجابته بسؤالها مُندهشة:

ـ كيف لنا قضاء الليل برفقتها وهي تجلس فيه تراقب شياطين السماء؟!، وما هو الحديث الذي تملكهُ لنا .

صرخ فيها غاضبًا بشدة :

ـ وهل ليّ القدرة أن أرفض أمرها بعدما قدموه إلينا من تضحية؟!، ومن أين ليّ معرفة المستقبل فهل ترينني عرافًا ؟!.

أجابته بأسف وهي تبكي بعد سقوطها أرضًا تركع على رُكبتيها :

ـ أنا خائفة يا خوان فلم أرى ظُلمةّ السماء من قبل فلا تلومني على فزع نفسي .

اندفع إليها راكعًا يضُمها إلى صدره يُطمئن جزع نفسها فهي معشوقةّ حياته، إن دموع المحبوب أشد وأقوى من ألاف الطعنات

بصدر المُحب، فدموع المحبوب هي نصالٌ من القهر أُغرقت لأعوام بسُم العجز فتُمزق نياط الوصل بقلوب المُحبين، ولا دواء لعاشقٍ يتألم إلى احتضانه فينتهي الألم والوجع بترياق اللقاء؛

سكنت روحها الفزعة بصدره فسكنت روحه لسكونها، تحركا تجاه منزل زهرة والغريب أن (نوي) لم يكون لجوار الباب، طرق (خوان) الباب الخشبي فلم تمُر لحظات حتى فتحت لهُ (جوري) الباب مُبتسمة تُرحب بهما وتطلُب منهما الدخول، دلفوا إلى الداخل تتقدمهم جوري صعودًا للدرج وهم يتبعونها، حتى وصلوا لسقف المنزل وكانت (زهرة) تجلس أمام النيران المشتعلة يجلس تحت أقدامها (نوي) يتكئ برأسهُ على قدمها في مشهدًا أكثر غرابةً لهم من غيابه عن الوجود أمام باب المنزل، أصدر هذا الوحش صوتًا كأنما يتحفز للقادمين فمسحت زهرة على رأسه وحدثته كأنما تُخاطب بشرًا :

ـ اطمئن إنهم ضيوفي وهم طيبون مثلك .

صعقهم حديثها لهُ و إستكانتهُ وهدوئه العجيب من أثر كلماتها له!، جلس خوان وزوجته متجاورين يواجهان زهرة ووحشها الساكن تحت أقدامها وابنتها جوري، سألها خوان في قلق بالغ بدا قويًا من لهجته :

ـ رهنُ أمرك يا عرافتنا، ما الأمر وما هو حديثُكِ لنا ؟! .

بدت ملامح (زهرة) قلقة للغاية وتكتُم حديثًا خطيرًا بداخلها، التفتت تنظُر لوحيدتها كأنما تتأكد من دعمها لحديثها، فأومأت لها جوري إيجابًا فأطلقت (زهرة) حديثها لضيفيها المُعذبين بالقلق :

ـ لقد رأيتُ أمرًا في المستقبل وهو يخُصكم فهل أنتم على استعداد لتقبُل الأمر ولو كان فيه مُرًا ؟! .

قتلهم القلق والخوف من كلِماتها فأجابها (خوان) وهو يتلعثم :

ـ أخبريني ماذا لديكِ فلقد فتك بنا الخوف، وقوع المصيبة أقل في وطأته من هذا الانتظار المرعب .

أمسكت (زهرة) بزمام المبادرة كعادتها فلم تكُن تقلق إلا من مُخطط جوري الذي لم تفهمه، كانت زهرة قد سردت على وحيدتها رؤيةً راودتها عن مقتل شقيقة (ماري) زوجة خوان على يد الجنود بمملكة الجبال البيضاء و مقتل زوجها و مقتل ماري وهي تصرخ وتنتحب بجنون فوق جُثث شقيقتها وزوجها، فكان رأي جوري غريبًا وحديثها أغرب فور سماع الرؤية من أمها أجابتها بقوة وهي تمسك بيدها :

ـ تلك هي فُرصتنا يا أمي للقصاص من هذا العالم وحماية (روفان)، أرجوكِ لا تُضيعي علينا الفُرصة .

أصابتها الدهشة من ردةّ فعل جوري فسألتها في ذهول :

ـ ماذا أصابك يا ابنتي وعن أي فُرصةً تتحدثين ؟!، وما علاقة قصاصنا وحماية روفان بمقتل شقيقة ماري وزوجها ؟! .

ـ يا أمي إن هذا الكون يحتضر ولا يحكمه الآن إلا أحد أمرين فإما الخوف أو الإيمان بالأساطير والخرافات الممزوجةً بالأمل، نحنُ سنقُدم للبشر مزجًا منهم حتى نفرض سطوتنا على البشر ونحشُدهم خلفنا فنحصُل على قصاصنا من بقايا جنود الظلام و نؤمن ملاذًا أمنًا لروفان وسببٌ قويًا للعودة، تلك هي معركتنا وسلاحنا فيها قدرتك على التنبؤ بالمستقبل، دعينا يا أمي نحاول إصلاح هذا الكون فلنفعلها أنا أثقُ أنك تستطيعين .

بقدر ما حملت كلمات جوري جنونًا كبيرًا ومُخاطرةً أكبر إلا أن تلك الكلمات أشعلت شرارة الثورة بداخل (زهرة) فبدأت تُفكر وتُرتب بعناية لمُخططها، كانت كلمات حفيدتها لها كقرعٍ طبولٍ يرتفع صوته بجنون داخل عقلها، تذكرت حينما قالت لها إذًا فأنتيً مثل المُخلص!، أحكمت ترتيبها برأسها وعرضته على جوري فأدهشها ذكاء والدتها ولم تُدرك الابنة أن أمها دبرت وأحكمت التدبير لما هو أبعد من خيالها، فكانت إيماءة الإيجاب من جوري لها أمام (خوان) وزوجته شرارة الانطلاق لمخططهم، نظرت إلى خوان وأجابته بقوة :

ـ لقد قُتلت (كامي) شقيقةّ زوجتك و كذلك (كايل) زوجها علي يد جنود المملكة، وان ذهبت ماري لتودع جثمان شقيقتها ستقتل، لذلك عليك أنت الذهاب وحدك فلن تغادر ماري منزلي حتى تعود .

أصابتهما كلماتها بالصدمة والفزع، تعالت صرخات (ماري) وانفجرت أعينُها دمعًا، لم يملك أحدهما قُدرة التشكيك في حديثها بعد ما عايشوه معها دقة في تحقيق تنبؤاتها بالمستقبل، أشارت زهرة لأبنتها بعينيها فنهضت تحتضن ماري وأردفت إليها قائلة :

ـ لا تحزنِ يا عزيزتي، هيَّ لنهبط بالأسفل فسوف تبقين بغرفتي ولن أترُككِ حتى عودة خوان .

هبطت ماري تتكئ على جوري وهي تعول وتندُب شقيقتها التي لن تتمكن من توديعها، هبطت بجسدٍ ينزف ألام القهر ويختنق حلقُها بمرارة الفقد، أبشع شعورًا قد يُصيب الإنسان في سويداء قلبه هو حسرةّ فقده لغالٍ على روحه ويمزقه عجزه عن الثأر له بل فرصة تودعيه وإلقاء النظرّة الأخيرة عليه وذلك الشعور المُميت هو الفقد ممزوجًا بالخُذلان، اختلت (زهرة) بخوان الذي أصابته الصدمة بالذهول ليصمُت دون أن يؤتي أي ردة فعل عن ما سمعه وما حدث وما قد يحدُث لزوجته، تجمد تمامًا فكان كصخرةً في قعر جبلٍ يكتُم بأسفله فوهةّ بُركانٌ يقاتل بلا كلل أو ملل لينفجر،

فتشتعل صخور الجبل بنيران الحقد البُركاني تُكافح الصمود وهي تحترق بلا أملٍ للهرب، انتزعتهُ من جحيم احتراقه بلهجتها القوية فور تأكُدها من رحيل (ماري) قائلة :

ـ استمع إليّ جيدًا إن ما أخبرتكما به عن شقيقة ماري وزوجها ليس دقيقًا، إنما قولته لأُخفف عليك الضغط في مهمتك لإنقاذهما .

انفتحت جفناه على اتساعهما وأجابها مُترجيًا :

ـ إذًا ما الحقيقة وما هي مُهمتي لإنقاذهما .

ـ مع بداية النهار عليك الإسراع إلى مملكة الجبال البيضاء وجمع أكبر قدرٍ من أقاربكم ومعارفكم هناك، أسرد عليهم نبوءتي وأحضرهم إلى هنا ولكن انتبه إن لم تستطيع إقناعهم حتى تسمع صوت نفير فعليك الإسراع فورًا بالقدوم إلى هُنا وتركهم؛ الجنود سوف تقتلهم هُم وكُل من يحاول الدفاع عنهم بعد صوت النفير بدقائق، هل فهمت وعلمت متى يجب أن تنسحب .

أومأ برأسهُ لها وهو يُجيبها :

ـ نعم فهمت جيدًا .

أمسكت بيده وهي تؤكد عليه :

ـ فور سماعك صوت نفير الجنود عليك الهرب عائدًا وحدك أو معهم .

لم تغفو عينه أو يتفوه بكلمه حتى رحل مع بداية النهار يشُق بمركبه الصغير أمواج الخليج عابرًا إلى مملكة الجبال البيضاء، وصل أخيرًا لشاطئ المملكة ليجتاز الممرات بين الجبال التي يكسوها الثلج حتى وصل لساحة المملكة التي يتوسطها بئر الماء، تُحيط الساحة المنازل الخشبية المصنوعة من أشجار الغابة الشرقية للمملكة، أسرع تجاه منزل (جاكلين) شقيقته التي تحيا مع زوجها (فرنان)، طرق باب منزل شقيقته الواقع في بداية المملكة و على مقربةٌ من ساحةّ البئر، فتحت له شقيقته لتحتضنه فور وقوع عينها عليه مرحبةًّ، فزعت وهي بصده كأنما تذكرت أمرًا جلل وسحبته لداخل المنزل في رُعب تسأله في رُعبٍ وهي تُغلق الباب عليهم :

ـ هل أتت معك ماري ؟! .

أجابها في قلقٍ بالغ :

ـ لا لم تأتي، ما الأمر وما يُفزعك إلى هذا الحد ؟! .

أشارت لهُ بالصمت وغاصت به إلى داخل المنزل، رفعت صوتها قُبيل غرفة نومها :

ـ فرنان لقد أتى (خوان) .

دلفوا إلى داخل الغرفة على انتهاء إعلام شقيقته لزوجها بوصوله، كان جالسًا أرضًا فنهض يُرحب به ويُشير لهُ بالجلوس لجواره، فعاجلهما (خوان) بسؤاله :

ـ ما الأمر وما سبب كُل هذا الخوف والقلق منكُما ؟! .

أجابتهُ شقيقته :

ـ أنت تعلم أن أرضنا تقاسمها جنود (نهاش) الثلاثة فكانت ل (كواش) الغابة الشرقية وثلث المملكة و (نواش) قلب المملكة والجبل الأبيض و ل (مهراش) البحر والثلث الأول من المملكة؛ وكما تعلم ثلاثتهم شياطين قذرة ولكن أخبثهم على الإطلاق هو (كواش) ورث من نهاش شبقهُ تجاه النساء، وتعيش (كامي) شقيقة زوجته بإطار ملكه، حاول بعض أتباعه وجنوده الذين اصطنعهم هو وشركائه الثلاثة في قتل نهاش اقتيادها إليه مُنذُ أيام بينما كان زوجها بالغابة فهربت إلى منزل إحدى صديقاتها قُرب الجبل الأبيض الذي يحكمه (نواش)؛ وكما تعلم أن زوجي يعمل بالتنقيب في الجبل وقد عثر على معدنٍ يحاولون تطويعه الحين لتصنيع الأسلحة منه وبعض المعدات فأصبح ل(فرنان) قدرٌ كبيرًا عنده وعند أتباعه، وعلم بالأمس من بعض أتباعه أن (كواش) سوف يذهب بنفسه في أتباعه اليوم لاقتياد كامي إلى فراشه، هذا هو كامل الأمر .

لم يبدو عليه أيةّ دهشة من حديث شقيقته وأجابها بقوة :

ـ إذاً صدقت العرافة .

أصابتهم كلماته بالذهول فلم ينتظر أن يسألاه، عدوه الآن هو الزمن وهو عدوٌ لا يرحم يقتُلك إما بسُم عقاربه أو بحد سيفه،

سرد عليهما كامل قصته مع (زهرة) ونبوءتها عن مقتل (كامي)، أصابهما الذهول والذُعر من ما سرده، أذهلهما مقدرتها العجيبة على التنبؤ بالمستقبل و سيطر عليهما الرُعب من فكرة مقتل (كايل) وزوجته، عرض عليهما ترتيب (زهرة) ومحاولة إقناعهما بالرحيل معه فرحبا بذلك،

اندفع معه للخارج (فرنان) يجمع من يعرفهم من ثقاته بالمملكة وهم في رحلتهم، كان كُل من يسمع منهم أمر النبوءة تُصيبه الدهشة والصدمة ويندفع معهم دون التفكير في نجاح مهمتهم من فشلها!، وصلوا أخيرًا للمنزل الذي تحتمي به (كامي) وزوجها، تقدم فرنان يطرُق الباب ففتح لهُ صاحبه مرحبًا طالبًا منهُ الدخول، أعلمه أنهُ ليس وحده وأن معهُ جمعًا من الأصدقاء،

دلف الجميع إلى الداخل في رحبة المنزل، همس (فرنان) في أُذن صاحب المنزل فغرق بداخل المنزل للحظات ثُم عاد سريعًا تتبعه (كامي) وزوجها، نهض (خوان) يحتضنهم في شوق وتحدث سريعًا إليهم :

ـ ليس هُنالك وقتًا نملُكه لنُضيعه، علينا الرحيل فورًا .

أجابهُ (كايل) في قلقٍ :

ـ لما العجلة وما الأمرُ الجلل الذي أتى بك إلينا ؟! .

صرخ فيهم :

ـ سوف تُقتلون عن لم نتحرك فورًا من هُنا، هيَّ بنا وسوف أُخبركم بكامل الأمر في الطريق .

لم تأتي الإجابة منهم، صُعق الجميع من صوت نفير استدعاء الجنود، ففزع (خوان) وصرخ فيهم :

ـ فلنتحرك فورًا، لا مجال للتأخُر .

أجابتهُ (كامي) بقوة :

ـ نحنُ لن نُغادر أرضنا ولن نتحرك من هُنا، إن كان الموت مكتوبًا عليّ سأموت هنا بمكان ميلادي .

صرخ فيها :

ـ لا مجال ولا وقت الآن للشعارات يا كامي، أسرعوا أرجوكم لننجو .

ربتت على صدره برفق وأجابته بلهجةً قوية تأكد منها أنها لن تُغير موقفها :

ـ لو هربنا ستُطاردنا لعنة الهروب باقي أيام حياتنا، لا مهرب لكّ من وطنك وإن كان الظُلم قانونه والقهر دستوره، مهما هربت منه سيُلاحقكّ فهو في قلبك أينما ذهبت يا عزيزي، ارحل أنت وعُد إلى وطنك واخبرها أني أُحبها كثيرًا، فأحيانًا يكون الوطن إنسانً .

عِلِمَّ أن وقت رحيله قد حان، رحل عن المنزل بصُحبة (فرنان) ومن معهم، لم يتوقف عقله عن التفكير في كلِماتها وموقفها للحظة طوال رحلة عودته، كيف يقبل البشر هذا الاستعباد والظُلم دون أن ينتفض أحدهم في مواجهته،

كيف يقبل هؤلاء الرجال قهر اقتياد نسائهم لاغتصابها على يد أنجس وأشر حيوانات الأرض دون أن ينتفضوا،!

تذكر رغمًا عنه تلك المرة التي اغتصب فيها وطنه، لم يكون لدى هذا الرجل يومًا سوى وطنًا واحد هو (ماري)، تذكر تلك الليلة التي اقتادوها فيها لاغتصابها و هربه للغابة في ظلام الليل، يصرُخ ويئن يُطالب وحوش الغابة قتله ليُريح نفسه من مرارة القهر والذُل، تذكر نظرات الجنود الثلاثة لهُ بكُل احتقار وهو عائدًا من الصيد وكيف لم يفهم أنهم أرادوا إخباره أنهم يحتجزون وطنه للتناوب على اغتصابها في تلك الليلة، نار الحقد اشتعلت بقلبه في تلك الليلة،

ذكر أنهُ كان عاجزًا مثل أهل المملكة حتى استنهض (مهاب) الشجاعة بداخله يوم دافع عنهُ، تسائل في نفسه متى يكون هُنالك مُهابٌ أخر في مملكة الجبال البيضاء؟!، عاد إلى مستعمرة العجوز ولم يُدرك أنهُ أتم مهمته على أكمل وجه كما أرادت العرافة!، أشعل مقتل (كامي) وزوجها الحقد في قلوب أهل المملكة تجاه الجنود وظُلمهم،

لكن أهم ما أشعله هو شُعلة الأمل والاعتقاد في العرافة العجوز؛ وعلى مدار عامين ونصف بلغت فيهم العرافة أوج قوتها واقتربت تمامًا من تحقيق هدفها، فلقد تعددت زيارات أهل المملكة بعد تلك الحادثة سرًا إلى المستعمرة لمقابلة العرافة، ومطالبة (زهرة) بالتنبؤ لكُل من أتى إليها عن مُستقبله، غُزلت الأساطير و الحكايات مع صدق كُل تنبؤ من العرافة، حتى تملكت قلوب كامل أهل المملكة وصارت تُسيطر على الرجال والنساء؛ فكانت أعظم نبوءة لها بعد عامين ونصف من مقتل (كامي) هي التنبؤ بالثورة على ورثة (نهاش)، بعد إعداد الرجال على القتال بغابة مستعمرة العجوز على يد (جوري) و (خوان) مُستخدمين الأسلحة الجديدة التي أعدها (فرنان) من معدن الحديد الذي كان يُهربه خلسة إلى المستعمرة،

كانت الخُطة عظيمة والنبوءة أعظم؛ لم ينسى أهل المملكة هذا النهار الذي رست فيه مركب (خوان) يحمل سيفه وبصحبته (جوري) تحملُ مطرقة مُهاب بعد تبديل رأسها الحجرية برأس فأسٌ حديدي على شكل قوسين ليقطع الأعناق إن وصل لها يمينًا أو يسارًا و(ماري) من خلفهما لتأدية دورها،

هبطوا من المركب وكما رُتب تمامًا وكما قالت النبوءة، يستقبل (فرنان) القائدين القادمين ويطرُق باب كُل منزلٍ بالمملكة وهم

في طريقهم إلى أماكن تواجد الجنود، فكان يخرُج من المنزل رجُل يحمل سيفه ودرعه الخشبي المُدعم بالحديد يتبعهم، فكان الغنيمة الأولى لهم (نواش) وأتباعه، ثم انضم كُل من قابلهم في طريقهم إلى (مهراش) وأتباعه بقلب المملكة فظفروا به، ثُم احتشد الجميع إلى (كواش) على حدود الغابة فأسرهُ الرجال وهو يُحاول الهرب واقتادوه إلى موقع قتله (كامي) وزوجها بمنتصف المملكة،

قُيدت يديه من الخلف ووضع راكعًا على رُكبتيه وبسطت رأسهُ على حجرًا، سلمت (جوري) فأسها ل(ماري) التي رفعت يديها بالفأس ترفع الغُبن عن قلبها وهوت بقوة الفراق والفقد ومرارتهم التي أصابتها لمقتل شقيقتها ففصلت رأسه عن جسده بضربةً واحدة وهو يصرُخ طالبًا الرحمة، لا يتذكرون الرحمة إلا وهم تحت وطأة سيف الانتقام أما كان أولى بهم تذكُرها وهم يبطشون بالضُعفاء!، طالب الجميع (زهرة) الانتقال على مملكة الجبال البيضاء فلقد تولت زمام الأمور بعد الإطاحة بورثة الظُلم من على عروش الدم التي صنعوها، لكنها رفضت الانتقال وآثارت البقاء في مستعمرة العجوز وإدارة كُل شيئًا من مكانها، ازدهرت المملكة وعم العدل وأصبح الجميع يتشارك حياته بسعادة ولم يبقى سوى خوفٌ واحد هو الظلام فتعددت الأسئلة للعرافة عن الظلام، حتى خرجت على

أهل المستعمرة قبل ثلاثةّ أيام لتقف في مُنتصف الساحة ونظرت للسماء وأردفت بقوة للجميع وهي تُشير بسبابتها إلى السماء :

ـ انظروا إلى السماء جيدًا، بعد أربعون يومًا من يومكم هذا تعود الشمس لشروقها ويعود القمر مُنيرًا لياليكُم .

ألقت نبوءتها فصرخ الجميع مُهللاً وهربت القوارب تنقلُ الأخبار للمملكة، دفعتهم السعادة لعدم التدقيق في ملامح وجهها التي لم تبدو عليها السعادةّ مُطلقًا، وحدها كانت تعلم أن هذه الأربعون هي الأطول والأكثر ألمًا ودمٌ على الأرض .....

***

-٧-

« لا وجود للصُدفة في هذا الكون فكُل شيئًا يحدُث فيه يحدُث بتدبيرٍ مُحكم حتى وإن لم تفهم الغاية فحتمًا سوف تُدركها بالنهاية» .

.. أرض النور ..
.. ممرُ النور ..
.. قُدسُ الأقداس ..

رست المركب على شاطئ النور وأشرقت شمس الأمل بداخلي، هذا هو ما شعُرت به وأنا أضع أولى أقدامي على الأرض أمام بوابة تلك الأرض العظيمة، رفعت رأسي أنظُر بذهولٍ لتلك الأسوار الحجرية المُرتفعة، وتلك التماثيل العظيمة على أطرافٍ بوابة أرض الأحلام، تلك النقوش والزخارف البديعة على تلك البوابة الذهبية الضخمة، تحرك أمامي السيد (ون) في زهوٍ وعظمة تجاه البوابة التي فُتحت فور أن رستْ سفينتنا، بينما كُنت أسير خلفه لجوار (أورجينا) مشدوهةً مسحورة بجمال هذا النهر الجاري بعزةٍ، يشهد بفخرٍ على عظمةّ تلك الأرض وقوتها، دلفنا إلى داخل أرضٍ السحر والجمال فسحرني مشهد المروج الخضراء والأشجار، طُرقًا حجرية مُستوية و مبانٍ عظيمة ألمحها من على بُعد، توقف السيد (ون) فجأةً واستدار يواجهني وتحدث بنبرته الهادئة :

ـ الآن يجب أن أنقلُكِ إلى قلعة النور الأمامية فلا يُمكن أن تمُري بداخل أرض النور على هيئتكِ تلك .

انتهى من جُملته وأشار لأحد الحُراس فأحضر حصانً امتطاه و بسط يده إليّ يجذبُني لأعلى، انحرف يسارًا بالحصان فهرولنا به كثيرًا حتى وصلنا أخيرًا قلعةّ النور، مبنىّ ضخم يكاد يوازي حجم مستعمرة العجوز بالكامل!، هذا هو أول ما دار بخُلدي فور أن وقعت عينيّ على تلك القلعة، أربعة أبراجٍ كبيرة هي حدودها الأربع، سورًا كبيرًا يربط بين كُل بُرجًا منهم والآخر، أربع بوابات ذهبية تحمل نقوشًا في كُل ضلعٍ لها، بابها الشمالي والشرقي يُطلان على خارج أرض النور والجنوبي والغربي بداخلها، نظرتُ إلى الباب الغربي الذي توقفنا عندهُ ولم أتمالك السيطرة على نفسي أكثر فسألته في شغفٍ للمعرفة وأنا أقف أمام الباب مذهولة من العظمة والجمال :

ـ أتلك هي قلعةّ النور التي استُقبلت فيها (سيلا) ويُستقبل فيها الوافدين ؟! .

أصابتهُ كلماتي بحالةً غريبة لم افهمها مُطلقًا، توتر على عكس تلك الشخصية وبدت ملامح وجهه تحمل آلاف المشاعر وأجابني كأنما يتنهد الجملة وشرد في نظره للقلعة قائلاً :

ـ نعم هي .

لم أحاول كسر حاجز صمته بحديثي مرةً أخرى، غمرني شعورًا أن تلك القلعة تعُج بذكريات مُختلفة له، بدت ملامحه تصرُخ من الألم والوجعِ والفرح والسعادة والأمن والطمأنينة حتى السكينة كان لها نصيبًا منه، قطع عليه حالة شروده وعليّ حالتي من الدهشة فتح باب القلعة وقدوم (أورجينا) من خلفنا بحصانها، تحدثت إليه (جين) كما أُحب أن أُناديها قائلة :

ـ ألن نتقدم على الداخل حتى نتعرف (روفان) على قلعة النور و تُبدل ملابسها ؟! .

استدار لها برأسه وأجابه دون أن يتحرك من موقعه أو تتبدل ملامحه :

ـ اذهبا وقومي بتجهيزها وعرفيها على القلعة وبعد انتهائكما احضريها إليّ بساحة التدريب .

أومأت رأسها تُعلمه طاعتها لأوامره، اقتربت مني وأمسكت بساعد يدي اليُسرى وهمست في أُذني :

ـ هيَّ بنا فالسيد (ون) لن يكون معنا قبل مساء اليوم .

لم أتمالك نفسي لأسألها ونحنُ نتحرك باتجاه القلعة :

ـ لمَ لن نراه إلا مساءً ؟!، وما سر تلك الحالةّ التي أصابته فور وصولنا هُنا ؟! .

همست في أُذني :

ـ إجابة السؤالين واحدة ويعلمها جميع أهل أرض النور، فقط نشرع في عملنا وسأسرُد لكِ كامل القصة .

تقدمنا إلى داخل القلعة وكان خلف البوابةّ ساحةً فسيحة مُمهدة الأرضية ببلاطٍ حجري منقوش بشكلٍ بديع، يقسم الساحة طريقًا متوسط العرضٍ بين صفين من التماثيل الحجرية لأشكال حيوانات مُلونة، ينتهي ببوابة القلعة الداخلية فكانت عظيمةً للغاية بلا بابٍ يحرس طرفيها تمثالين ضخمين كُل واحدٍ منهم لرجُلا يجلس على حجرٍ يضع يديه على رُكبتيه رافعًا هامته بعزة، أما الجدار فكان مُرتفعًا تملئه النقوش المحفورة بألوانٍ آخاذة فأصابني جمال ما أرى بالذهول، عبرنا خطوات للداخل لأكتشف أننا بداخل القلعة فقابلنا ممرًا يسارًا يقابلهُ مُمرًا أخر فدلفنا لليسار، كان هُنالك حارسًا يرتدي قناعًا من القماش الأبيض المطاط يُخفي ملامح وجهه إلا من عينين ينظُر بهما و يجلس لجوار فتحة الممر من الداخل على كُرسيًا خشبيًا مُذهب أمامهُ طاولة، نهض من جلسته فور دخولنا وأردف مُحدثًا جين :

ـ إذًا تلك هي الوافدة الجديدة!.

أجابتهُ مُبتسمة :

ـ نعم هيّ، ماذا أعددت لها ؟! .

أشار بيديه مُتهللاً بشكلٍ غير مفهوم وأردف وهو يتوجه إلى صفٍّ كبير من الخزائن خلفه يصطف بطول الغرفة الكبيرة حتى نهايتها :

ـ أعددتُ لها درع وقناع ولباس زهرةّ النور .

أجابته بدهشة وسعادة :

ـ زهرة النور!، يبدو أنك تعلقت بها قبل أن تراها .

أصابتني الغرابة والدهشة من حديثهما الغير مفهوم ليّ حتى همست في أُذني :

ـ زهرة النور هي زهرة تتحرك تجاه الشمس لتستقي منها الحياة، ولم يرتدي هذه الملابس من الوافدين إلا (سيلا) وحدها، ولا أعلم لمَ اختارْ لكِ تلك الملابس .

عاد يحمل الملابس على يديه وسلمهم إليّ وهو ينظر ليّ بتمعُن وأردف :

ـ الحقيقة أني لم أختار لكِ تلك الأزياء إنما اختارها السيد (ون) وأبلغني أنكِ حينما تصلين فتكون تلك الملابس لكِ، أهلاً بكِ في أرض النور .

ابتسمت لهُ (جين) وأمسكت بساعدي لنتحرك، لم أفهم كلِمات هذا الرجُل ولا سبب اختيار تلك الملابس ليّ من قِبل

(ون)، دلفنا إلى داخل الممر المواجه فور خروجنا، فكان بذات المساحة الكبيرة لكنهُ مُقسم لغُرف على كُل واحدة منهم بابٌ خشبي مُزخرف، دلفنا داخل أول غُرفةٌ لليمين، فكانت محتوياتها فراشٌ بسيط من الخشب و كُرسيًا أبسط والعديد من الأحذية بمقاساتٌ مُختلفة، نظرت ليّ (جين) وأردفت :

ـ الآن عليكِ تبديل ملابسك وانتقاء حذاءًا يُناسبك لنبدأ رحلتنا بقلعة النور، سوف أنتظرك بالخارج حتى تنتهي من ارتداء ملابسك بحُرية .

خَرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها، غمرني شعورًا غريبًا من الإثارة والحماس والسعادة والخوف، مررت يدي على الملابس مرارًا وتكرارًا وأنا أكتُم صرخات السعادةّ والأمل بداخلي، تلك الفتاةّ البسيطةَّ في مُستعمرة العجوز تتحرك من أجلها (إليانور) و جيش النور وقائده وكُل هذا الترتيب العظيم،

هل ثقةّ جدتي فيّ والتي نقلتها إليّ كانت عن يقين بالقدر أم أنها صُدفة ؟!،

أجبتُ نفسي عن سؤالي بعد ارتداء ملابسي قبل أن أخرُج ل(جين)، إن هذا الكون وتلك الحياةّ لا مكان فيها للصدُف العابرة، كُل شيئًا يحدُث هُنا هو لغاية وبترتيبٍ مُحكم حتى لو لم أكتشف غايته الآن، بالتأكيد سوف أكتشفها في النهاية، رفعتُ

هامتي وتحركتُ للخارج يقتُلني الشبق للمعرفة، ما أسرار تلك الأرض وكيف لها أن ترى النور وتصل إلى تلك العظمة بينما يعُج العالم خارجها في بحورٍ من التخلُف والظلام ؟!، اندفعتُ خارج الغرفة باحثةً عن الأمل فأدهشتني نظرة (جين) ليّ، اتسعت أعينُها وتبدلت ملامحها للذهول فعاجلتها وأنا أفتش في ملابس التي بدت عليّ كأنما صُنع جسدي لها وليس العكس سائلةً :

ـ ما الأمر؟!، لمَ تلك النظرات الطويلة ؟! .

أجابتني ولم تتبدل ملامحها :

ـ تبدين غايةً في الجمال يا (روفان)، كأنما خُلقتِ لتكوني بأرض النور .

أنجلتني كلِماتها فأجبتها بقوة :

ـ إذًا فلتُعرفينّي على أرضي فأنا أشتاقُ لرؤيتها .

نظرت لي وأردفت :

ـ الآن علينا ارتداء الأقنعة، لا يُمكننا التجول بقلاع النور بين الوافدين بوجوهنا .

انتهت من كلِماتها وسلمتني قناعًا من القُماش الأبيض المطاطي لأرتداءه فلم يعد يظهر من ملامح وجوهنا إلا العينين وشعرنا يسقُط من فتحة بخلف القناع، لم أسألها عن سبب ارتداء الأقنعة كُنتُ

على يقين أن رحلتي معها سوف تُجيب عن كثيرًا من أسئلتي، تحركنا إلى ذات النقطة بين الممرين، وتقدمنا إلى الأمام فتبع هذا المبنى ساحةً أُخرى يتوسطها بُحيرة ماء ويلهو في تلك البحيرة أطفالٌ يرتدون ذات الأقنعة وتمتلئ الساحة بالحُراس منهم من يعقد جلسةً مُستديرة ببعض الأطفال واليافعين، والبعض يتدرب على القتال باليد، والبعض يلهو بالماء في البحيرةّ الصغيرة، أذهلني جمال هذا المشهد المُبهج من السعادة حتى انتزعتني من حالتي صرخة أحد الأطفال كاد يسقُط في البحيرة وهو يقف بين حارسٍ و بعض الأطفال، التقطهُ الحارس قبل أن يسقُط للتوقف الحياة في تلك الساحةّ للحظة،

أشار الحارس للأطفال حوله بمن فيهم هذا الطفل الذي كاد يسقُط، كانوا ستة أطفال تتراوح أعمارهم بين العشرةّ إلى الثانيةّ عشر عامًا للوقوف أمامه،

اقتربنا منهم نُحافظ على مسافةً متوسطة حتى نسمع حديثهُ لهم، تحدث بلهجةً قوية كان يسمعها كُلٍ من بالساحة وهو يُراقب في صمت بعد توقف الحياة فكان حديثه :

ـ هُنا في الأرض النور لا مكان للضعفاء والضعيف هو من يعيش وحده أما نحنُ هنا فجميعُنا جسدٌ واحد إن سمحت بسقوط أحد أعضائك فقدت قطعةً من بدنك، فعلى باقي الجسد مساعدة

العضو وعدم القبول أو السماح لهُ بالسقوط ؛ الآن سوف أحاول السقوط في تلك البحيرة فهل سوف تسمحون ليّ بالسقوط .

انتهى من حديثهُ لهم وأعطى ظهره للبحيرة وفرد ذراعيه للأمام وبدأ بالانحناء للخلف بغية السقوط في البُحيرة، ليندفع الأطفال تجاهه يُطبقون على يديه وأقدامه يمنعونه السقوط!، أذهلني جمال ما أرى حتى وجدتني أُصفق لهؤلاء الأطفال ولمُعلمهم، اتجهت أنظار جميع من بالساحةّ إليّ فشعرت بخجلٍ شديد، قطع الصمت والنظرات صوت ذات الحارس لأطفاله بقوله :

ـ كما أننا هُنا لا نُصفق لمن أصاب في أمرٍ، الجسد واحد ولا شُكر ولا ثناء لمن أعان صديقه، الدائرة سوف تدور عليك وتحتاج أن يُنهضك أحدهم فينُهضك ولن تحتاج لشُكره، الشكر والثناء سوف يُعطيكم إحساسًا بالفخر والزهو الشخصي لكننا هُنا نفخر ونزهو بمُجتمعنا وكامل شعبنا وأرضنا .

ألهمتني كلمات هذا الحارس كثيرًا وأشعرتني أن تلك الأرض حقًا تستحق النور، إن التجربة هي خيرُ مُعلم وأبلغ من ألاف الكلمات، قطع شرودي وصمتْ الساحة صُراخ ذلك الحارس الذي يُدرب مجموعةً من اليافعين على القتال باليد بعد أن أطاح بأحدهم أرضًا :

ـ أنت لا فائدةً منك ولن تتعلم شيئًا، ضعيفٌ سوف يسقُط مع أول ضربةً في المعركة .

اتجهت جميع الأنظار إلى الحارس الذي وقف أمام مجموعته من المتدربين وكانوا خمس شباب بين الرابعة عشر والسادسة عشر من العُمر يسقُط أحدهم تحت أقدامه،

اندفع الأربع شباب تجاه الشاب الساقط أرضًا يُنهضونه، اصطفوا جميعًا على شكل رأس حربة و تتابعت موجات هجومه على الحارس بُغية إسقاطه فيفشلون في كُل مرة حتى سقط أخرهم، هرولت (جين) تجاههم فتبعتُها إلى موضع الحارس،

أنهضنا الجميع وأشارت لهم جين بالتراجع للخلف فتراجعتُ للخلف معهم وأنا أتحرق شوقًا وحماسًا لتلك الفتاة وما سوف تفعل، أشارت بيدها للحارس تطلُب منه أن يُهاجمها، اشتبكوا بقوة فكانت تأخُذ قلبي وروحي معها كُلما تصدت لضربةً منه وتُكيل له أقوى منها، حقًا هذا المُتغطرس يستحق التهذيب، حتى أسقطته أرضًا فغمرتني السعادة لإهانتها له فهو يستحق تلك الإهانة!، ما أن سقط أرضًا حتى اندفعت إليه وهي تميلُ له باسطةً ذراعها تُنهضه!، أنهضته فأومأ لها برأسه إيجابًا وتراجع خلفها بينما استدارت هي تواجهني أنا ومن خلفي من الشباب وأردفت بقوة :

ـ لقد أثبتم أنكم جميعًا من شعب النور لوقوفكم لجوار زميلكم ونُصرته، فالساكتُ عن الظلم يستحق الظُلمات، لكنكم أخطأتم في كونكم عماد جيش النور وحراسه، جنود النور وحراسه لا تندفع

تجاه معركةً وهم غير واثقين من النصرو الظفر فيها، فالنصر الذي يأتي بمرارة فقد أشقائنا يتساوى لدينا مع الهزيمة النكراء!، لا تندفع إلى المعركة أبدًا إلا وأنت واثق النصر واثقٌ أنك لن تفقد عضو واحد من بنيةّ جسدك، فإن فقدت عضو واحدًا لن يكون هنالك نصرًا وسوف تحيا حبيس مرارة عُقدة الذنب حتى يحتضر بدنك بأكمله و تموت مقهورًا .

أصابتني كلمات (جين) بالصدمةّ، ما تلك الأرض ومن أسس تلك القواعد والمبادئ والمفاهيم المُنيرة ؟!، من أين لهم بتلك الأفكار العظيمة ومن علمها لهُم، اجتاحتني حالة عجيبة لم أفهمها ولم تحتويها كلماتي من السعادة والذهول والإعجاب والتعلُق بتلك الأرض،

أنتزع الجميع من تلك الحالة صوت أحد الحراس على البوابة التالية لمبنىً أخر بأخر الساحة يُطابق نفس المبنى الذي خرجنا منه ويحوي غرفة الملابس وهو يدعو الجميع للطعام، بدأ الجميع الانسحاب إلى المبنى بينما بقيتُ ثابتةًّ في موقعي من هول الصدمة حتى اقتربت من (جين) وحدثتني قائلة :

ـ لا تتعجلي فسوف تجدي التفسير لكُل ذلك بقصة السيد (ون) التي سوف أسرُدها عليكِ بعد أن نتناول طعامنا .

تقدمنا تجاه باب المبنى ودلفنا داخله، أول ما قابلنا بداخل المبنى هو ساحةًّ كبيرة، تُحيطها الأعمدة المُستديرة المنقوشة بألوانٍ

مُبهرة من جِهاتها الأربع، يتخلل كُل جانبٌ من الساحة ممراً، ودرجٌ حجري يقود للطابق الأعلى في الجانب الشرقي والغربي لنا من ممر الدخول، النقوش الجميلة تغزو كُل شبراً هنا في الجُدران والأرضية وحتى السقف، تلك التماثيل المبهرة لأجساد بشرية بعضها برؤوسٍ بشرية وأُخرى لحيوانات وأخرى لمفترساتٍ السماء تعُج بها تلك الساحة العظيمة،

بدأ الجميع يسحب صحناً من صف الأواني ويتجه إلى طاولة بعرض الساحة وضع عليها الطعام وكان غريبٌ لم أعهد به من قبل، فلم نعلم طعاماً لنا في مستعمرةّ العجوز أو غيرها سوى الأسماك والطحالب البحرية والحيوانات من الغابة والتي تتغذى على الطحالب البحرية وبراعم النباتات التي تُورق أو تُزهر من أثر غياب الشمس،

حملت عني (جين) صحن ودارت على طاولة الطعام تجمع منه لي ولها حتى امتلئ الصحنين وجلسنا مُتقابلين أرضاً، قسمت قُرصاً بيدها وأعطتني نصفه وأردفت :

ـ هذا هو الخُبز الذي نُحضره من طحن الغلال وطهيه بالنار وهو عماد أي طعام، هُنا نقوم بطهي كُل ثمار الأرض فهي تنبُت بحُرية على أرضنا، الشمس هي الحياةّ للنبات والإنسان والحيوان يا عزيزتي .

شدهني حديثها فسألتها على عجل :

ـ هل لكِ أن تُريني حقول تلك النباتات ومراعي الحيوانات .

ضحكت وأجابتني :

ـ روفان، لا تتعجلي فسوف تُشاهدين كُل شيئًا ألم تتعلمي من ما حدث مُنذُ لحظات الصبر وأن كُل شيئًا يحدُث بالتجربة، اطمئني فسوف تزرعين بيدك و تحصُدين زرعك وتطهين و تبنين وتُقاتلين مثلنا، هُنا كُل واحدٍ منا على علم بأدق تفاصيل أرض النور؛ باستثناءٍ واحد هو مُحرم على الجميع .

سألتها في شبق للمعرفة :

ـ ما هو هذا الشيء المُحرم على الجميع ؟! .

نظرت ليّ بدقة وغرابةً لم أفهمها وتوقفت عن تناول الطعام وأجابتني :

ـ (ممرُ النور) وهو بالمدينة السرية و (قُدسُ الأقداس) بعده؛ تلك هي المنطقةُ المُحرمة ولا يدخُلها إلا المخلص و السيد ون و مجلس النور و حكماء النور فقط، يقف على بابِ ممر النور أقوى حُراس النور بسالةً وقوة، ولم يتجرأ أحدًا لمحاولة التفكير في كسر قوانين ومبادئ أرض النور إلا (سيلا) وهيّ أيضًا سألت السيد ون ذات سؤالك فأتمنى ألا يكون سؤالك هو بداية تكرار لقصتها .

أصابتني كلماتها بحالةٍ عجيبة من الخوف والقلق والتفكير فدفعتني للصمت وأمسكتُ بطرف قناعي لأخلعه حتى أتمكن من الطعام، فأوقفتني وهي تُشير إلى نفسها فتفهمت أنها لا تُريدني أن أنزع القناع بل عليّ أرفعه حتى أنفي فأكشف فمي مثل الجميع وأتناول طعامي وما أن انتهينا حتى عودنا وعاد الجميع ينزل قناعه يُخفي باقي ملامحه، نهضنا من جلستنا و وضعنا الصحون بموضعها على طرف طاولة الطعام وهمست في أُذني :

ـ الآن أُخبركِ بقصة السيد (ون) ونحنُ نتعرف على القلعة .

تحركنا صعودًا إلى الدور الأعلى وبدأت تسرُد عليّ قصة سيلا التي كانت أخبرتني عنها جدتي ولكن بشكلٍ مُختلف، أعلمتني أن سيلا لم تدخُل إلى أرض النور وحدها مُنذُ قدومها بل دلفت إلى قلب السيد (ون) من اللحظة الأولى لوقوع عينهُ عليها، بتلك القلعة التي نحنُ بها الآن وأن ون هو من اختار لها ملابس زهرة النور بنفسه!، وصلنا إلى الطابق العُلوي فتوقفت عن السرد وأشارت إلى الممرات والحجرات المُتتابعة وأردفت :

ـ هنا غرف المبيت لكل من بالقلعة، الجانب الشرقي للأطفال بأعمار اثنتي عشر عام فما هو أقل، الجانب الشمالي للحراس، الجانب الغربي للفتيات من هم ستة عشر عام فما هو أقل، الجانب الشمالي للشباب الباقين .

كُنا أمام الجانب الشرقي الخاص بالأطفال وأمامه درجٌ أخر صعدناه لأعلى و تابعت قصتها قائلة :

ـ اشتعل قلبُ السيد ون بحب سيلا حتى احترق وتمزقت روحه من شدة ولعه بها .

قاطعتُها سائلة :

ـ وهيّ لم تُحبه ؟! .

نظرت ليّ ونحن على الدرج وأومأت برأسها رفضًا و تابعت حديثها وصعودها قائلة :

ـ سيلا، لم تُحب إلا المخلص وحده مُنذُ دلفت إلى أرض النور وقبل أن تأتي إليها لم يتملك من قلبها غيره، إن استوطن عشق أحدهم في روحك، فعشقهُ يقتُل بداخلك كُل عشقٍ وإحساسٍ ورؤية بسواه، تلك كانت حالةّ سيلا وعشقها للمخلص .

وصلنا أخيرًا إلى سطح القلعة، فكان فسيحًا لا يمنعه سقفًا عن السماء، تقدمنا إلى نُقطة بعيدة على حافة السطح نبتعد عن المجموعات التي تتدرب على القتال وجلسات التعلُم لنختلي بحديثنا، وصلنا إلى حافة السطح وأمامنا يمتد مشهدٌ لا تصف جماله كلمات، جنةً من الزرع والأشجار على ضفاف فرع نهرٍ عظيم مائه صافي أزرق، منازل بديعة حجرية وحيوانات ترعى بالأراضي من بعيد،

تمثالاً ضخم يحلم فوق رأسه الشمس، الهرمُ الأعظم يخرُج من قمته شُعاع النور يُلهم الأرض الحياةّ، سماءُ صافية وشمسٌ تغيب في حُمرة تسُر الناظرين، قطعتْ شرودي في هذا الجمال نبرتها الحزينة وهي تنظر لأرض النور :

ـ عاشت تلك الأرض أصعب أيامها وعانت مُعاناةّ السيد (ون)، باغتت سيلا الجميع بإعلان حبها للمخلص في ساحة النور أمام الجميع ولم ينسى أحدًا ملامح السيد ون وحسرته ولا نظرةّ المخلص له وانسحابه هو والحكماء وأعضاء مجلس النور لقدس الأقداس، ولا اقتراب سيلا من السيد (ون) وكلماتها له بأن لو أن لها السلطة على قلبها لما أحبت غيره لكننا لا نملكُ قلوبنا .

لا أعلم لما شعُرت بوجعٍ في صدري لحديثها، إن القلوب حقًا عجيبة وعجيبٌ كُنهها وطريقة تحرُكها، الحكمة تقول أن أُحب من يُحبني لكن الحُب والقلب لا يعرفا أيٌ منهما الحكمة أو المنطق هو يندفع خلف مشاعره دون تفكيرًا في عواقب اندفاعه تلك والتي قد تكون مُدمرة ومُهلكة ولكنِ تعلمتُ من جدتي أن أُدبر شتى أموري بحكمة ولن أقع في تلك المُعضلة!، لم أتحمل الصبر بداخلي أكثر فعاجلتها سائلةً :

ـ وكيف كان حال السيد (ون) وموقفه لخيانة سيلا لحبه ولأرض النور بأكملها ؟، وكيف كان موقفه من المخلص ؟ .

صمتت للحظات كأنما تستجمع معلوماتها لتُجبني أو رُبما شجاعةً يقيني أنها تملكُها، نزعت القناع عن وجهها ليذبحُني رؤية أعينُها مُخضبتين بالدموع، تحدثت بألمٍ مزق قلبي :

ـ أنتِ تضعين يدك في قلبُ جُرحٍ غائر لم يلتئم، مهما وصفتُ لك جُرح (ون) وقدر الألم الذي مر به لن تكفيني كُل كلمات الألَم والقهر، لن تُدركي يا روفان ألم الخيانة والخُذلان إلا حينما يجتاح كيانكِ عشقُ أحدهم فتجدينهُ يبذل كُل ما تتمنيه منه لغيركِ أمامكِ وأنتِ عاجزةً عن كُرهه، لكنِ سأُجيبك بالكلمات التي قالها لها (ون) وهو يُجيبها أن زمام قلبها ليس بيدها أمامي وأمام كامل أهل أرضنا قُبيل رحيلها فكانت :

وكيف ليّ أن أُخبركِ بعشقك وتُعجزني الكلمات

وكيف ليّ أن أصرُخ بحُبك وحنجرتي تَسجن الصرخات

وكيف ليّ أن أُقدم روحي تضحية كآلاف التضحيات

وكيف ليّ أن أتمنى وجودي قُربكِ وأنتِ أغلى الأُمنيات

وكيف ليّ أن أحلُم بوصالٍ يُثلج روحي الثكلى وقد انتهى زمن المعجزات

ألا يجمعني بك حلمٍ عوضًا عن الحسرةٍ على ما فات

ما بقي ليّ وعدٌ أن أبقى وفيًّ في عشقكِ حتى الممات

أجهشت بالبُكاء فاحتضنتها بقوة أُهدئ روع روحها، لا أعلم لمَّ شعُرت أن تلك الفتاة لا تبكي وتنتحب من اجل (ون) وحده بل اجتاحني شعورًا أنها تبكي حالها ونفسها وتُخفي بداخلها شيئًا يُمزق روحها ألمٌ ولا تستطع البوح به، هدأ روعها بصعوبةٌ وعادت تنظُر ليّ بأعينُ ذبُلت من البُكاء و تابعت حديثها بمرارة حسرة لم أفهم مصدرها :

ـ لقد قُتل ون بنصل الخيانة ولم يعود كما كان أبدًا، رحلت سيلا وذهبت ل(بوان) تحشُد ملوك الظلام لمعركة النور لأنها كانت تعلم كما كان الجميع يعلم أن قرار الحرب بأرض النور كان قد اتُخذ من قبل الحكماء ومجلس النور والمُخلص وبقي اختيار الوقت المناسب للمعركة فقط، فأحكمت خُطتها لتُعجل بالحرب ومقتلها، كان الجميع يعلم أنها حاولت مرارًا الاقتراب من المُخلص وكان يصُدها ولم نفهم لما كان الصد أهو لعلمه بحب (ون) لها وهو أقرب معاونيه وأصدقائه له أم لان قلبهُ يتعلق بأحدهم!،

كُل ذلك لم يكون سوى بداية مُعاناة أرض النور والتي تفجرت أزمتها بمواجهة المخلص و السيد (ون)، رفض (ون) قيادة الجيش والذهاب إلى الحرب أمام مجلس النور والحكماء والمخلص وشعبُنا بأكمله، كان يعلم برفضه ذلك أنه يضع نفسه تحت نصل سيف المُخلص، كان مشهدًا مُخيفًا قُطعت فيه الأنفُس .

أصابتها رعدةٌ قوية دفعتها للتوقف عن الحديث للحظة ثُم عادت لمتابعة حديثها لي، بأنهُ فور أن عاد المبشرون بأخبار خيانة سيلا جمع المُخلص مجلس النور والحكماء والشعب في ساحة النور، حُشر الجميع للساحة فعرض المبشرون الأمر، نهض المُخلص من مجلسه وسط مستشاري المجلس وهم سبعةّ أعضاء على يمينه و حكماء النور وهم سبعةٌ على يساره تجاه الفسحة التي تفصل الجميع عنهم، رفع صوته يستدعي السيد (ون) الجالس مع مستشاري النور فهو منهم ليتقدم منه ويقف أمامه وجميع الأعين تتجه إليهما فوجه المخلص إليه حديثه :

ـ لما كان خطر سيلا لا يضُر غيري وغيرك أمهلتها برضا وكُل ذلك من أجلك، أما الآن وقد بلغ الأمر من سيلا حد الخطر على كامل أرض النور وشعبها فالأمر لم يعُد لي أو لك وقد أَصدر الحكماء مشورتهم بضرورة الحرب و أكد المجلس مشورتهم وأنت منهم والآن لم يبقى سوى أن أطالبك بقيادة جيش النور لغزو ملوك الظلام وقتل سيلا .

نظر لعينيه واقترب من وجهه وهو يُجيبهُ صُراخًا :

ـ أتمنى عليك أن تطلُب مني ذلك لأرفض فتضطر لذبحي فيلحق جسدي بروح التي ذُبحت بيديك! .

قُطعت الأنفاس وعم الخوف والصمت الجمع، إن ما يحدث هو دربًا من الخيال فالمُخلص هو مُخلص أرض النور من ظلامها ومُخلص شعبها من الاستعباد والظلم ومؤسس كُل ما نحن فيه وندين لهُ بفضله وهو لم يطلُب من أحدًا الاعتراف بهذا الفضل فكيف يُحمله ون ذنب جريمة حُب سيلا له إن كانت جريمةً فهو لم يُشاركها فيها أو كانت لهُ بها يدٌ، اتجهت جميع الأنظار للمُخلص ولم يفهم أحدًا يومًا فيما يُفكر أو بما يشعُر فهو الوحيد من أرض النور وشعبها الذي لا يفارق قناعه وجهه حتى وهو يأكُل فهو منعزلاً لا يعلم أحدنا قسمات وجهه ولا يتجرأ أحدًا على الاقتراب منه لرؤية عينيه، الجميع يعلم أن الطاعة والولاء لأرض النور وشعبها أقدسُ مبادئها وإن طلب المُخلص من السيد ون قيادة الجيش فرفض فيتحتم قطع رأسه ، ساد الخوف والقلق الجميع حتى أومأ المخلص برأسهُ إيجابًا وأجابه بصوتٍ سمعهُ الجميع :

ـ وأنا لن أطلُب منك يا صديقي، فإن كُنت تتوهم أنِ ذبحت روحك فلتتيقن أن الموت أقرب ليّ من أن أرى جُرحًا ولو صغيرًا بجسدك، فليستعد شعب النور للحرب ولسوف أقود الجيش بنفسي بينما سيبقى قائدكم يُدبر شؤون أرض النور فهو عمادها وقائد جيشها المفدى .

انتهت من سردها وهي تهُز رأسها بعنف كأنما تطرُد الأفكار من رأسها وأردفت وهي تنظُر لي :

ـ لن تتخيلي كم الألم والمعاناةّ التي عاشت بها تلك الأرض وشعبها في تلك الأوقات، اندهش الكثيرين من موقف السيد ون وكانت دهشتهم أكبر من موقف المُخلص وكيف أزال الأزمة من منبعها، رحل الجيش بقيادة المخلص وبقيت أنا والعديد هنا فكُنت في مثل عمرك وقتها، وعاد الجيش بجُثة سيلا ودفنت في غياب السيد ون الذي لم يراه أحدًا إلا بعد تمام دفنها، ولم يعود السيد ون من هذا الوقت كما كان أبدًا فتبدل وأمسى أكثر قسوةً وحُزنً وبعدًا عن أرض النور فهو دائم الترحال مع إليانور وإن انتهت الرحلات يكون هُنا بتلك القلعة مع ذكريات عشقه، وبقى جميع أهل أرض النور في حيرةٍ من أمرهم، من يملك الصواب والحقيقة أهو المُخلص أم السيد (ون) .

انتهت من كلِماتها وتحركت تبتعد عني بعد أن ارتدت قناعها فعاجلتُها سائلة :

ـ أين تذهبين ولمَ تترُكيني وحدي هُنا ؟! .

استدارت وأجابتني :

ـ أذهب إلى غرفتك لأُجهزها لك بالمدينةّ السرية، ولا أترُكُكِ وحدك هُنا سوف يلتقي بكِ السيد (ون) فالمساء اقترب و أغلب ذكرياته مع (سيلا) كانت موضع وقوفك وهي أقرب المواضع لقلبه

وأعلم أنِ لو لم أُحضرك لها لأحضركِ هو فاختصرت على كليكُما الزمن، سأنتظرك ولن أنام حتى تعودي .

رحلت وتركتني وحيدةً أُجاهد فهم كلماتها، لم أفهم من كلماتها إلا مُعاناةّ ون في حبه، ومعاناة أهل تلك الأرض مع الخوف من نشوب صراعٌ بين مُنشئ تلك الأرض ومُخلصها من جانب و قائد جيشها ومستشارها من جانبٍ أخر، حقًا إن هذا الصراع إن نشأ في أي أرضٌ فهو كفيلاً بتدميرها، لكن من منهما يملك الحقيقة أهو المخلص أم ون لم أتمالك نفسي وأنا أصرُخ :

ـ أين الصواب ومن يملُكه ؟! .

أجابني صوته قائلاً :

ـ أنتِ الصواب وحدكِ وأنتِ تملُكينه بداخلك .

استدرت فزعة من هول إجابته وأنا أتسائل من عساه يُجبني بتلك القوة والمعرفة ؟! .

***

-٨-

« إن أي عِلمٍ أو معرفةٍ ما وجدت إلا لتخدم البشر وتظهر في شكل حكمة يتوجب على الحكيم تحويلها لحقيقة يلمسها البشر، فإن لم تتحقق ملموسةً فقد عجز الحكيم ولم تعجزْ الحكمة، فالحكيم هو يفيد البشر بحكمته ولا يحق له منعها»

.. الهرم الأعظم ..
.. المدينة السرية ..
.. كنوز الأرض ..

استدرت فزعة من هول إجابته وأنا أتسائل من عساه يُجيبني بتلك القوة والمعرفة ؟!، لم أتفاجأ منهُ فلقد نزع قناعه قبل أن يُجيبني، فأجابته بخجلٍ شديد :

ـ أعتذر لرفع صوتي فهذا ليس من طبعي ولكنك بالتأكيد تعلم أن ما مررتُ به خلال الأيام الماضية مُربك لأبعد أحد .

ـ لا عليكِ، أحسنتْ (أورجينا) بأن أحضرتكِ هُنا فأنا أعشقُ الجلوس هنا، أشعر أني أرى كامل الكون تحت أقدامي، أشعُر أني أُحلق في سماءٍ من السعادة لا نهاية لها لمجرد وجودي هنا .

ألقى كلماته وجلس أرضًا فجلست لجواره، وبادرتهُ بسؤالي :

ـ يا سيد (ون)، أرى أنك تخلع قناعك أليس من المفترض ألا تخلعه ؟! .

ضحك بقوة وأجابني :

ـ نعم من المفترض ألا أخلعه ولكنِ أمسيت أعشق كسر بعض القواعد والقوانين، في مرحلة ما من حياتك سوف تصلين إلى قناعة أن كُل القواعد والقوانين والمبادئ ما هي سوى عبث ومحاولات فاشلة لتحسين صورة مقيتة وبشعة لشكلٍ من أشكال الظُلم والقَهر المُتستر بأقنعةً تُجمله .

أصابتني كلماته بالحيرة فأجابته :

ـ لم أفهم كلماتك وما الحكمة من ارتدائنا الأقنعة ؟! .

هز رأسه إيجابًا وأجابني :

ـ الحق أن فكرة الأقنعة في قلاع النور ضرورية، فهي تؤكد للوافدين أن الجميع مُتساوي هُنا سواء كان حارسًا أو وافدًا وأنهُ لا تمييز لأحدًا سواء لشكله أو لمكانته، الجميع هُنا سواسية في الحقوق والواجبات وهذا ما نُرسخهُ في الوافدين، أما أنا فخلعت القناع لأنهُ من المحرم صعود أحدهم هنا مساءًا نمنع الصعود خشية سقوط أحدهم من أعلى، أنظري حولك لا يوجد غيرنا وتستطيعين خلع قناعك .

بحثت بعيني خلفي فلم أجد سوانا، عم الهدوء و السكينة المكان تمامًا، خلعت قناعي وأنا أهُز رأسي ليتنفس عقلي، فعاد لحديثه :

ـ هل تفهمتِ الآن سبب جُملتي لكِ بأن ما أنتِ عليه نحتاج لأعوام لنُدرب عليه الوافدين ؟ .

ـ الحق أنِ لم افهم حتى الآن .

ـ يا روفان أنتِ كما قال المُخلص، تُمثلين روح أرض النور، كما أخبرتُكِ كُل ذلك قد سردهُ المُخلص، أنت تمتلكين التضحية و رفض الظلم و الإيثار ورغبةً جامحة في تحقيق المساواة، هذا هو عماد أرضنا وأهم مبادئها .

هززت رأسي رفضًا لمجاملته وأجبته :

ـ الفضل في ذلك لا يعود ليّ إنما لمن قام بتنشئتي على ذلك .

استدار ليّ مُحذرًا وأردف :

ـ لا تذكريهم هنا أبدًا حفاظًا عليهم، أنتِ لا تتخيلين المعركة التي أقودها بداخل مجلس النور لوقف سفك الدماء، المجلس والحكماء يؤيدون المُخلص في إفناء كامل أهل الأرض خارج تلك الأسوار، ولا يردعهم غيري فلا تُحفزيهم أكثر بأي حديثٍ عن فضلهم عليكِ حتى لا ينتبهون لوجودهم فنضطر للوقوف بين طرفي معركةٍ تفتك بقلوبنا بين أهلنا من جانب وأرضنا من جانب أخر .

شعُرت بالضيق والخوف من حديثه وللحظة شعُرت أنهُ يُريد أن يبدو أمامي كملاكٍ وهو قاتلٌ أخبث من الشياطين، فأجبته بغضبٍ بدا جليًا من نبرة صوتي:

ـ أشعر أنك تُهددني بقتل أهلي وهو ما لم أسمح به لا منك ولا من غيرك، وأما عن معركتك بداخل المجلس فحقًا أنا لا أعلم عنها شيئًا، لكنِ أعلم أنك من أباد مملكة الرمال وذبح رجالها و حرق أرضها وشتت نسائها بعد أن انتزع من أحضانهم فلذات أكبادهم، فلا تدعي المثالية أمامي فجميعُ من بالأرض يستحق الهلاك ولا وجود للملائكة عليها .

لا أعلم لمَّ حدثته بكُل هذا الغضب والضيق، هل ملتُ لأن يكون المُخلص هو المُحق وهو من يملك الصواب وأن (ون) مشوش الفكر والذهنِ نتيجة عشقه لسيلا؟!، لا أعلم لكن قسمات وجهه كانت غريبةً عجيبة، على عكس ما توقعت من أن يُعاقبني أو يثور أو يغضب كان يبتسم بقوة وصفق ليّ فور أن انتهيت من حديثي له!، نظر ليّ بفخرٍ غريب وأردف :

ـ لن أُجبك إن كُنتُ شيطانً أو ملاكًا ولكن الأيام وحدها سوف تُخبركِ الحقيقة وأنا أثق في قدرتك على التمييز بين الحقيقة والكذب، الآن هيا بنا لأُعرفك على أرض النور ومدينتنا السرية و سر النور والشمس و أقوم بتوصيلك لمنزلك بأخر الرحلة .

انتهى من كلماته العجيبة التي أشعلت الحماس بداخلي وارتدى قناعه فتبعته في ارتداء قناعي فنظر لي بدقة وأردف :

ـ هل أخبرتُكِ أن رداء زهرة النور يليقُ بك، إن لم أقول فهو حقًا يليقُ بك .

انتهى من حديثه واندفع لرحلة الهبوط يُمسك بيدي في رحلة هبوطنا، كُنا نهرول كأن السعادة تنتظرنا، لم أفهم ما سر سعادته البالغة بعد ما قُلته له ولا أسباب هرولته في رحلة هبوطه ونحن نغادر مباني القلعة مبنىً تلو الآخر والحراس تُتابعنا في دهشة بدت جلية من إشاراتهم ونحنُ نهرول كطفلين سعداء بلهوهما لا يهُمهما نظرات الكبار المُستنكرة ولا إشارتهم الرافضة، الطفولة هي السعادة فلا تُقيد الطفلِ بداخلك لتحيا تحت براثن الندم على ضياع طفولتك، هذا ما عشتُ وأنا أؤمن به وأعتنقه، لم نتوقف إلا أمام بوابة القلعة الخارجية، نخلعنا قناعينا وتحدث إليّ و نحنُ نلهث :

ـ ما رأيكِ أن أجعلك تمطين حصانًا،الأمر بسيط ولا يحتاج إلا للجرأة والقوة وكثيرًا من الحُب .

أجبتهُ و أنا أقفز فرحًا وأتراقصُ سعادةً :

ـ وهل ذلك سؤالاً بالتأكيد أوافق .

أشار بيده لحارسا فأحضر حصانين أحدهما كان أسود اللون ولهُ غرةً بيضاء و خُصلات شعر رأسه يختلطُ فيها اللون الأبيض والأسود فاتجهت إليه وكان الأخر هو حصان (ون) وأعرفه وهو

أبيض اللون لهُ غُرةٌ سوداء على رأسه، اقتربنا من الحصان بعد رحيل الحارس، فأحتضن ون رأسهُ في حنينٌ وقبله وأردف ليّ :

ـ تلك هي سيلا،أقصدُ أن ذلك الحصان أنثى وأنا من أطلق عليه (سيلا) وهو لكِ من الآن .

اقتربت من الحصان ومررت يدي بلُطفٍ على وجهه أكتشف ردة فعله، مالت تلك الجميلةُ السمراء بوجهها على كفي فتراقص قلبي فرحًا لقبولها ليّ،ساعدني السيد ون في الصعود لظهرها وأعلمني كيف أوجهها للحركة، وطالبني أن أضرب بطنها بقدمي بلُطف ففعلت، تحركت للأمام ليمتطي (ون) فرسه ويُسرع بمروره من جواري وهو يصرُخ :

ـ اضربي بقوة أكبر واتبعيني .

ميلتُ برأسي لأُذنها وأنا أهمسُ لها :

ـ سيلا، هل لكِ أن تُسرعي فلا أُريدكِ أن تتألمي ؟! .

ضربت بقدمي على بطنها برفق فكان لكلماتي عليها وقعُ السحر، أَطلقت العنان لأقدامها تُسابق الريح حتى صرنا على مقرُبةٌ من (ون) وحن نهرول بمُحاذاةّ السور حتى عُدنا لموضع البوابة الكبيرة، فانحرفنا يسارًا نُحلق مع أحصنتنا بمُحاذة فرع النهر نندفع تجاه قلب الكون النابض، الحقول الشاسعة يسارًا ويمينًا هي السائدة بعض

المنازل الحجرية البديعة، تُزينها الأعمدة المُستديرة المنقوشةَّ وبوابات المنازل المُزخرفة بأجمل النقوش والألوان،

كُنتُ ألمح تفاصيلًا صغيرة ونحنُ نحلق منها وبتكرار تلك اللمحات حُفرت الصورة البديعة لتلك الأرض العظيمة في مُخيلتي، حلقنا كثيرًا حتى بدأت تظهر معالم تلك الأرضُ الآخاذة للعقول، ما أن تقترب من تلك الأرض حتى تَسبي عقلك بسحرها وجمالها، تشعُر أنها جنةٌّ الكون من فرط زهوها وعزتها، توقفنا على مرمى النظر من هذا التمثال الضخم بوسط فرع النهر، هبطنا من على أحصنتنا لأقف مشدوهةً أمام عظمةّ تلك الأرض، اقترب مني السيد ون أردف وهو يُشير للتمثال بسبابته :

ـ هذا التمثال يرمز للحقيقة والحقيقة تُكشف من النظرة العُليا للسماء وأما القُرص على رأسه هو رمزٌ للشمس فلا حياةّ للكون بدونها .

تحركنا من موقعنا فهذا التمثال هو بداية أرض النور تتبعه الساحة الدائرية الكبيرة يسار النهر المُمتد إلى واحة النور،

انتهت المنازل الحجرية لشعب النور قُبيل الاقتراب من الساحة بقليل، لتبدأ الساحة الواسعة المرصوفة بالبلاط الحجري على اليمين مبنيين كبار على ذات الطراز المعماري لأرض النور من ارتفاع منازلها والأعمدة الأمامية والتماثيل على واجهاتها، احدهما هو مكتبة

النور والمعرفة وتحتوي على آلاف المجلدات لعلومٍ شتى والأخر للحكمة و يُحاول الحكماء فيه تطبيق العلوم والمعرفة لاستخدامها في خدمة أرض النور وشعبها وهذان المبنيان من أقدس مباني الأرض ويحرُسهما أقوى حُراس النور بالمملكة، ولا يُسمح لأحد أن يرفع صوته بالقُرب منهما الدخول إلى المبنيين لهُ طقوساً أولها أن تنحني في تَهذُب أمام الحكمة المنقوشة على واجهة مكتبة النور وهي أن الباحث عن المعرفة عليه التحلي بالصبر والشجاعة والتهذُب فالمعرفة يلزمها قلوبٌ نظيفة تحملُ بصيرةً و لا تكتفي بأعينُ مُبصرة لتصل إلى الحكمة في قلبُ العلم والمعرفة، وخلع حذاءك وأن تكون نظيف الملبس،

أما الجملة على مبنى الحكمة هي إن أي عِلمٌ أو معرفةً ما وجدت إلا لتخدم البشر وتظهر في شكل حكمة يتوجب على الحكيم تحويلها لحقيقةً يلمسها البشر، فإن لم تتحقق ملموسةً فقد عجز الحكيم ولم تعجزُ الحكمة، فالحكيم هو يُفيد البشر بحكمته ولا يحق لهُ منعها،

وبمُنتصف الساحة مصطبةً حجرية مرتفعة عن باقي أرضيات الساحة وعليها أعمدةً مُستديرة على شكل نصف دائرة بين كُل عمودًا والأخر كُرسيًا حجريًا منحوتٌ على شكل حيوانًا أو طائر، بالمنتصف بينهم كُرسي يُشبه التمثال العظيم الحامل لقُرص الشمس فهو كُرسيّ (المُخلص)،

أما الجهة الأخرى من الساحة فكانت أعظم وأجمل ما رأت عيني، وهو الهرمُ الأعظم الذي يقف في شموخٍ شاهدٍ على عظمة تلك الأرض وقوتها، هذا الهرم هو سرُ الأسرار في تلك الأرض بل في الكون بأكمله،

هذا الهرم هو المُغذي لنور الشمس ومُعيدها وهو الذي يُغذي (إليانور) وشبيهاتها، هو من يتحكم بالهرمين التابعين بعده، ويتحكم بالهرم الأخير في واحة النور، قتلني الشبق لمعرفة كيفية إعادته للنور والشمس وإدارته لكُل ما تراهُ عيني من جمال فلم تتأخر إجابة نفسي، اندفعت بصحبة (ون) تجاه (حارس النور والمعرفة) هذا الصرحُ الحجري لا يقل في عظمته عن الهرمِ الأعظم، هو تمثالٌ ضخم للغاية لجسد وحشا يبسُط يديه أمامه ولهُ وجهٌ بشريًا، يجلسُ هنا مُنذُ آلاف الأعوامً حارسًا لنور وأسرار الكون من المعرفة،

اقتربنا من قلبه بين يديه وكان هُنالك حارسين يقفان أمام بابٍ سري يقود لمدينة النور السرية فتحه الحراس لنا ما أن اقتربنا منهم، تقدمنا عبر الممر والدرج المخرفة جدرانه بنقوشٍ غاية الروعة ومُنيرا بقناديلٍ مُشتعلة على جانبيه،

كان الدرج والممر متوسطًا المسافة، شدهني هول ما أرى بالأسفل من جمال وحياةّ، فور أن انتهى الدرج وجدتني أمام ساحةً عظيمة مُستديرة على اليمين بابٌ كبير من الذهب المنقوش

يقف عليه أربعةّ حُراس اثنين منهم حجريين عظام الطول ويمسكون أسلحتهم والآخرين من البشر يحرسون (ممر النور) وهو بداية المنطقة المُحرمة و أمامي منازل تُشبه المنازل بالأعلى وطرُقاتٌ كاملة أمامي وعلى يساري على جانبيها أبواب المنازل وتماثيلٌ من الذهب تحمل مشاعل الضوء، جمالاً لم تراهُ عيني قبل هذا اليوم قط، وقف أمامي السيد (ون) يواجهني ونحنُ بمنتصف الساحة وسألني :

ـ هل تُحبين الإقامة بالمدينة السرية أم بالأعلى ؟ .

أجبتهُ بلا تردُد وبقوة :

ـ هنا بالتأكيد .

ابتسم وأجابني :

ـ كُنتُ أعلم بذلك فمنزلكِ سيكون مع أورجينا، أما الآن فسوف أهبُكِ ما لم يهبهُ أحدًا لفردٍ بأرض النور قبلكِ قط .

أشعل الحماس بعقلي وروحي بكلماته وتحرك تجاه بوابة ممر النور!، تبعتهُ يقتلني الشبق لمعرفة ما بداخل هذا الممر وما خلفه، هل تتحقق أمانيِ المرء كُلها في لحظة ؟!، كان هذا هو سؤالي لنفسي وأنا أتبعه بأعينٍ مفتوحةّ على اتساعها وعقلًا ينهشه الجوع للمعرفة، توقف أمام الحارسين وأشار لهم بفتح بابُ الممر فنظر لهُ أحدهم وأجابه بقوة :

ـ أنت تمُرّ أما هيّ فلا يُمكن، الممر مُحرم عليها وعلى الجميع يا سيد ون .

أجابهُ بثباتٍ وقوةً أذهلتني منه :

ـ افتح الباب بأمريّ .

لم يتردد الحارسان في التنحي وفتح البوابة الضخمة وهم ينحنون لنا ويبسطون أيديهم تجاه داخل الممر، دلفنا إلى داخل الممر وكان بأكملهُ لامعًا من الذهب يُغرق كُل قطعةً فيه النقوش البديعة وتماثيلٌ رائعة الجمال لم أعلم معدنها فهي بيضاء من غير سوء للحد الذي تشعر أنك ترى شرايين تلك الأجساد بداخلها وعند قلوبهم يشع نورًا أبيض بداخلهم يُضيء الممر بالكامل!، ممرٌ قصيرًا به سبعُ تماثيل يمينًا يماثلهم سبع يسارًا، وصلنا لبوابة الممر ففتحها (ون) لنصل إلى ساحةّ (قدس الأقداس)، ساحةً فسيحة مُبهرة مُستديرة الشكل تعُج بتماثيلٍ تُماثل الموجودةّ بالممر، يمين الساحة ستةّ قصورٍ عظيمة للغاية تماثلُها ستٌ أخرى بالجانب الأيسر، يواجهني بابٌ يُشبهُ باب الممر لكنهُ بنقوشٍ مُختلفة يتوسطه نحتًا بارزًا لهرمٍ صغير، توقف أمامي (ون) وأردف :

ـ تلك هي ساحةّ قُدس الأقداس وهي المنطقة المحرمة، الأثنى عشر قصرًا حولك هُم ثروة تلك الأرض وهم أقدسُ ما فيها، بداخلهم أسرار هذا الكون مُنذُ نشأته حتى نهايته!، علوم وأسرار كافة الحضارات الماضية والقادمة، تلك القصور هي كنوز الأرض الحقيقة .

ألقى كلماته التي ألهبت حماسي للمعرفة والتعمُق أكثر واستدار يواجهه الباب الأخر وأردف وهو يُشير إليه :

ـ أما هذا الباب فهو باب قُدس الأقداس، وهو بوابة الهرم الأعظم ولو أن ليّ سلطة دخوله لأدخلتك، فلقد اعتدت مُخالفة القوانين، وأعلم أن المُخلص بالداخل يرانا ويعلم أني أخالف القوانين وأتمنى أن يفعل الواجب تجاه من يخالف القوانين معي، لكني أعلم أنه لن يفعل ذلك .

سألتهُ بشبق حقيقي :

ـ لكن ما سرُ هذا الهرم وكيف لهُ القُدرة على إعادة نور الشمس ؟!.

نظر ليّ بقوة وأردف في ثبات :

ـ إن الهرم الأعظم هُنا مُنذُ ألاف الأعوام، بُني بغرضٍ أساسي قد نكون نجهله حتى الآن، لكن ما تمكنا من الوصول له إن هذا الهرم على مدار آلاف الأعوام

كان يستقطب الطاقة من الرياح والشمس ويستجمعها بداخل قُدس الأقداس أسفله، فتمكن المُخلص من إعادة تدوير تلك المعادلة فعم الضوء أرضنا من جديد، هذا هو ما نعلمهُ فقط ولم نهتم بأكثر من ذلك في المعرفة حوله، تلك هي مُعضلة البشر لا يهتموا إلا بما يضمن لهم الحياة فقط .

عُدت أسأله مُتعجبةً :

ـ بالتأكيد هُنالك أسرار أخرى بداخله وقُدراتٍ أكبر لم تُكتشف ألم يحاول أحدٍ اكتشافها ؟! .

ضحك بسخريةً و أجابني :

ـ أوافقك الرأي حكماء أرضنا يُجاهدون في بحثهم عن تلك الأسرار والقُدرات، أما عن المحاولة فالمُخلص يكاد يكون لا يُغادر قدس الأقداس في محاولات للمعرفة والاكتشاف والتنقُل عبر الزمن بحثًا عن تلك القدرات .

سألتهُ بشغفٍ بدا جليًا من ملامحي وكلماتي :

ـ هل ليّ أن أرى المُخلص وأحدثه ؟ .

نظر لي بعُمقٍ وأردف :

ـ بالتأكيد سوف تريه لكنِ أنصحُكِ بألا تحاولِ الاقتراب منه فهو لن يسمح لكِ بذلك، المخلص لا يحوم حوله سوى الموت والهلاك، استمدي منهُ الحياة وحافظي على مسافةً كافية بينكِ وبينه تكفيكِ للهرب، من يقترب منهُ يحصُل على الموت أو يتعذب وهو يتضرع إليه في طلب الموت، لا تكوني مثل (سيلا) أو مثلي .

انتهى من حديثه ولاذ بصمته وانسحب مُغادرًا وأنا أسيرُ خلفه، لم أشاء أن أكسر حاجز صمته في كثيرًا من الحيان يحتاج

المرء لأن يختلي بأحزانه لتنجلي روحه، فللألم قُدرةً عجيبة على جلاء الأرواح؛ عدنا من جديد لساحة المدينة السرية، وكان نُزلي مُطلاً على الساحة،

توقفنا أمام البوابة وأعلمني (ون) أن هذا منزلي مشاركةً مع (جين) ورحل، دلفتُ إلى داخل المنزل وكانت (جين) تنتظرني في بهو المنزل الداخلي،

عرفتني على غرفتي وغرفتها و تركتني لأنال قسطٌ من الراحة على فراشي بداخل حُجرتي الجديدة، ثم أسرع الزمن وتطورت معه طوال ثلاثة أعوام، اقتربت فيهم من المخلص بمسافةً كافية، فلم نلتقي وجهًا لوجهٍ قط، علمتُ فيهم أسرار تلك الأرض ونظامها فالجميع هنا يهتم بعمله ويتقنه لأنهُ على ثقة بأنهُ لو تهاون سيضُر نفسه،

مجموعةً تبني المنازل وتُبدع فيها فمن يحتاج منزلاً ما عليه إلا الطلب من مجلس النور فينقلهُ الحراس للمنزل الجاهز، وهكذا صُناع المباني والمزارعون يضعون محاصيلهم لدى شون وصوامع أرض النور ومن يحتاج للطعام عليه الذهاب للسوق لجمع مستلزماته وهكذا،

الجميع هُنا جسدٌ واحد تُتقن عملك لأنك سوف تحتاجه أما أرض النور بإدارتها فهي تُدبر التنظيم والتفكير لتسهيل حياة البشر وحسب، نبغتُ بشدة في تدريبات القتال على يد السيد (ون) حتى

اليوم الذي هزمتهُ فيه فرفعني لمنصب نائبته واعتمد قراره مجلس النور ولم يعترض المُخلص، صرتُ الآن نائبة قائد جيش النور،

بدا ليّ أنِ أقتربُ حقًا وبقوة من تحقيق نبوءة جدتي، لكن أهم ما نبغت فيه هو المعرفة التي نهلتُها من مكتبة المعرفة وكان أبلغ ما قدمت من حكمة هو تجربتي لزراعة نباتٍ في الظلام مستخدمةً قناديل من الزجاج يشتعلُ بداخلها فتيلٌ من القماش، فنبت النبات ويحاول الحكماء في مبنى الحكمة تطوير الفكرة، اقتربت كثيرًا في تلك السنوات من (ون) فصرتُ أعلم مواقع وجوده كأني أحيا بداخله، أعلمُ قراراته وكلماته وسكناته وها أنا أندفع بحصاني قبل الغروب وأنا على يقين أنهُ موجودًا بسطح قلعة النور على أطراف أرض النور،

وصلتُ أخيرًا لبوابة القلعة الأمامية، انحنى الحُراس ليّ وهم يفتحون الباب، ارتديت قناعي واندفعت إلى رحلة الصعود ركضًا فأُحب دومًا التحرُك بسُرعة وحرية بلا تقييد، وصلتُ أخيراً لأجدهُ وحده بموقع لقاءٍ به أول مرة، نزعت قناعي واندفعت للجلوس جواره وبادئته الحديث وأنا ألهث قائلة :

ـ أنت لا يُمكن أن تتغير صرت أعلم حتى سكناتك ألا تميل إلى التجديد ولو لمرةً واحدة حتى لا يُصيبك هذا الملل الذي أراهُ على وجهك ؟! .

أجابني دون أن تتبدل ملامحه أو يلتفت ليّ :

ـ لمّ أتجدد ولمن، إن ما تريه على وجهي هو الحُزن والبؤس لا الملل يا روفان .

صمت للحظاتٍ وتابع حديثهُ بحُزنٍ بالغ قائلاً :

يا شمس الهوى أَشَّرقي و لا تغيبي

تغيبين فلا شروق لشمسي قريبِ

فأسألُكِ الوصال بأمل اللقاء ولا تُجيبي

و تصرُخ روحٌ احتراقها الشوقِ بلهيبِ

ألا تقتربين من قلبِ حبيبِا

قتلهُ الغيابُ وأنتِ القاتل والطبيبِ

فتعلق أملي بموتٍ يُفرجُ كربي

سألتهُ وأنا أتمزقُ ألمًا من أجله فخرجت نبرتي مِلئها الوجع :

ـ ما الذي أصابك فقهرك حتى أمسيت ميتً يتلهف أن يُقبر ؟! .

حافظ على شروده وأجابني دون أن يُبعد نظره عن الغيوم أمامهُ :

ـ أصابني الحُب، أطلقتُ سهام الإخلاص والحب في فضاء العشق فعادت إليّ تحملُ الخيانة والهُجران فتمزقت روحي وتقطعت نياطُ قلبي فأمسيتُ أترجى الموتِ .

هز رأسهُ أسفًا وهرِبت ابتسامةّ حسرة من شفاه وتابع حديثه :

ـ قيل في الخُذلان ألاف الكلمات ملئها الحسرة ورُغم ذلك لم تقترب شيئًا من ما حييته!،الخُذلان هو إجابة من تترجى وده بأنه لا ينتظر سوى عودة غائبٍ دهس قلبه وروحه أسفل أقدامه وأنهُ جاهزٌ للتضحية بكِ من أجل إرضاءه!، الحقيقةّ واضحة دائمًا ولكن الحُب يُعمينا عنها، فإن أردتِ ألا يُصيبكِ ما أصابنيّ فلا تُحبِ .

صعقتني كلماته وأصابت قلبي مرارة حسرته فأجبته :

ـ لكن الحُب حياة، ارض النور بأكملها تحيا بالحُب ودونه هلاكها وهلاكنا معها .

التفت ليّ وأجابني صارخًا :

ـ إن الحُب حسرات و خيبات مُتكررة ودائرةًّ من الخوف والخُذلان المُميت، أرض النور وأهلها التي تتحدثين عنهم يحيون بالخوف لا الحُب، الخوف من الظلام والهلاك هو ما يدفعهم للتقدم و خوفهم هذا يومًا ما سوف يقتُلهم وتهلك أرضهم .

قاطع حديثنا اندفاع أحد الحُراس إلينا يصرُخ في فزع مُناديًا السيد (ون)، انتفضنا واقفين وأجابه (ون) :

ـ التقط أنفاسك وانزع قناعك، ما الأمر ؟! .

نزع الحارس قناعه والتقط أنفاسه بصعوبة، صمت لحظات نظم فيها أنفاسه المتقطعة ورفع رأسه ينظر إلينا ووجه حديثهُ إلى (ون) :

ـ كما تعلم يا سيدي نحن نجوب الأرض بحثًا عن ناجين، كُنا على مقرُبة من مملكة الجبال السوداء، فأمسكنا بامرأة أخبرتنا بأمر لهُ العجب ! .

صرخ فيه (ون) :

ـ أسرع أيها الحارس في حديثك .

ـ أخبرتنا يا سيدي عن ظهور (عرافة) بمُستعمرة العجوز، تنبأت مُنذُ ثلاثة أيام بعودة النور لكامل الأرض، والبشر بالخارج يحتشدون ووجهتهم إليها .

قتلتني كلِمات هذا الحارس فسألتهُ في خوفٍ وشغف بدا جليًا من وجهي ونبرتي :

ـ من هي تلك العرافة وما مدى قوتها وصدق نبوءاتها ليحتشد البشر خلفها ؟! .

ـ إنها امرأةٌ عجوز تُدعى (زهرة) وأما عن صدق نبوءاتها فالمرأة التي أمسكناها تؤكد أنها تنبأت بالكثير وتحقق حتى تنبأت بالثورة على جنود نهاش وأمست تقود مملكة الجبال البيضاء وأعدتْ جيشًا من أهل المملكة وصنعت أسلحةً وأمست خطرًا حقيقيًا على أرض النور .

تحدث (ون) بحماسٍ بالغ وهو ينظُر إلي بقوة :

ـ مُنذُ ثلاثة أعوام أخبرتُكِ أن الأيام وحدها سوف تُعلِمك إن كُنتُ شيطانٌ أم ملاكًا وما زلت أثق في قُدرتكِ على التمييز، ها قد أتت الشرارة التي سوف تُشعل نيران الحرب، الآن لن أُمانع قرار الحرب فلقد فوت حربٌ فيما مضى ولن أفوت تلك المعركة سأُبيد الجميع بنفسي علَّي أجدُ ضالتي .

استدار يواجه الحارس وأردف في قوة :

ـ أسرع ولا تتوقف إلا أمام مجلس النور أبلغهم بالأمر وأبلغ حُراس المدينة السرية نفخ أبواق المعركة ودق طبول الحرب فلا أُريد أن تنام أرض النور الليلة قبل أن تُحشد لمعركتها غدًا .

هرول الحارس لتنفيذ أمر (ون) وهرولت روحي خلفه، أيُ جحيمٍ أنا فيه وأنا نائبة قائد جيش النور وأهم قادته، هل سأقود جيشٌ أعلم أنهُ لن يرحم أمي وجدتي ولن يتمكنوا من صده مهما بلغوا من قوة أم أرفُض المشاركة بالحرب ولن يُمهلني المخلص كما أمهل (ون) ليقطع رأسي بسيفه، الويلُ ليّ . .....

***

-٩-

«أبشع ما قد يمُر به الإنسان هو اندفاعه إلى مهلكته والأكثر بشاعةً أن يكون على عِلم بتلك المهلكة ولا يُمكنه إيقافها، هذا هو الموت المُحقق!»

.. قطار الموت ..
.. ثورة الأرض ..
.. نبوءةً للمُخلّص ..

ركض الحارس وتبعه (ون) للإعداد للحرب، رحل الجميع ولم يبقى غيري أسيرة فزعي على ما سوف يحدُث خلال ساعاتٍ قليلة، هل أقود حقًا جيش النور لذبح أمي وجدتي ؟!،

أي جنونٍ أصاب هذا الكون وأي جحيمٍ أقحمتُ نفسي فيه وأقحمتنا فيه جدتي!، قطع النزاع بداخلي روحي وعقليّ و أصابني بالتشتُت، انتزعني من تلك الحالة أبواق الفزع التي أطلقت صرخاتها على قرع طبول الجحيم تستدعي الجميع للحشد بساحة النور، هبطتُ من سطح القلعة أتخبط حتى وصلت لأبواب القلعة وحصاني ولم أعلم كيف وصلت إليه،

اندفعت بحصاني أُلبي نداء الجحيم، أبشع ما قد يمُر به الإنسان هو اندفاعه إلى مهلكته والأكثر بشاعةً أن يكون على عِلم بتلك المهلكة ولا يُمكنه إيقافها، هذا هو الموت المُحقق؛ لم أتوقف إلا أمام

الساحة وكان الزحام شديدًا، لقد حُشد كامل أهل الأرض لمعرفة الأمر الجلل الذي نُفخت من أجله الأبواق و دقت طبول الحرب، الجميع مُتحفز لأقصى درجة، أردتُ الصُراخ فيهم أنكم تحتشدون لهلاك روحي، تمنيت لو أن ليّ قوة أن أمنعهم وأخبرهم أن تلك العرافة هي جدتي لكني أعلم ما سيحدُث إن تفوهت بكلمة، لن يتردد المُخلص في فصل رأسي عن جسدي وسيعتبرني الجميع خائنة لأرض النور أستحق الهلاك!.

تقدمتُ بصعوبةً بالغة أشُق طريقي بين الزحام حتى وصلت أعتاب ساحة الأعمدة، كان الجميعُ حاضرًا يرتدي ملابس الحرب بأكملها، لمحني (ون) فأشار ليّ لأقترب وأحتل موقعي بالوقوف خلف كُرسيه، نهض المُخلص من كُرسيه فور وصوليّ لموقعي وتقدم يقف بين مستشاري النور وحكمائه خلفه ويواجه شعب النور و تحدث بصوتٍ مسموعٍ للجميع وبنبرةٍ غلبها الحماس :

ـ جميعكم عايش موقفًا مُشابه لما نمُر به اليوم فيما مضى حينما رفض قائد جيشنا قيادته في معركة النور الأولى، عايش الجميع قلقًا وخوفًا بالغ وأسئلةً لم يجد لها إجابة، ها أنا اليوم أُجيبكم بأن السيد (ون) هو قائد جيشكم في معركة النور الثانية .

ألقى كلماته وأشار بيده للسيد (ون) ليتقدم وعاد لكُرسيه، قُطعت الأنفاس فكان الجميع يتذكر اعتراض (ون) السابق فهل

سيعترض ثانيةً وينال مُراده بالموت على نصل سيف المُخلص ؟!،

الحق أن ذلك هو ما كُنت أتمناه رغم يقيني أن ذلك لن يؤخر المذبحة القادمة لكنه كان سيُهدئ أوجاعي من أن يقود قتل أهلي مُعلمي وقائدي، تقدم (ون) وهو بملابس الحرب الكاملة ليقف مكان المُخلص، تحدث بنبرةٍ قوية لم أسمعه يتكلم بها مُنذُ عرفته قائلاً :

ـ اليوم أُجبكم ولن أكذبَ عليكم إنني وقفت في وجه قرار الحرب لأعوام، كُنتُ أرى فيه سفك للدماء ولم أُريدْ توريط أرض النور في هذا القدر من الدماء، أما اليوم وقد وردت إلينا الأخبار بأن الخطر أمسى يُهدد أرضنا ويُعرض أرضنا للخطر فإني أُعلمكم التأهب للحرب غداً...

استعدوا للدفاع عن حياتكم ولا ترحموا من لن يرحمكم، لن أتراجع في تلك المعركة حتى أفني أخر روحٍ مُظلمة من أهل الظلام وأضعها بنصل سيفي في قعر الجحيم .

أنهى خُطبته الجوفاء الكاذبة وهو يُشهر سيفه يُحمس المُغفلين من شعب تلك الأرض، كم من ظالمٍ استعبد شعبه واستغفلهم بإلقاء نيران الحماس الخادع في قلوبهم ليُشعل أشَّر ما فيهم وهي روح الانتقام، لم أتحمل التواجد بين هؤلاء الفاسقين الكاذبين، الآن أتتني الإجابة وعلمتني الأيام فالجميع شياطين ولا ملائكةً على وجه

الأرض؛ ابتعدت عن الزحام تجاه النهر أغسل وجهي وروحي من مائه الطاهر، ليت قلوب البشر بنفس ذات القدر من طُهر ونقاء مياهك الجارية في كرمٍ وسخاء، هذا هو ما لفظته فأتتني الإجابة من خلفي :

ـ هُنالك قلوب بشرٍ أكثر في طُهرها من هذا الماء الصافي، مثل قلبك وقلب السيد (ون)، اعتذر لم أُرِد التصنُت على حديثك لكن الزحام وروح الحرب تُقلقني فأردت الابتعاد فكان نصيبي أن أجدُكِ وأسمع حديثك فأجبت .

التفت لأكتشف من هذا الأبله الذي يُحدثني، كانت (أورجينا) في ملابس الحرب هي المتحدثة، نظرت لها في أسفٍ وضحكت بسُخرية وأجبتها بقسوة الحقيقة :

ـ(ون)، يا عزيزتي إن من تتحدثين عنه أشر أهل الأرض وأكثرهم خُبثًا، هو يتصنع الرحمة وهو لا يملك بداخله إلا العذاب والشبق للقتل و رغبة جامحة في القتل، أي قلبٍ طاهرٍ يملُكه وهو من أباد أرض الرمال بعدما رفض الحرب على أرض الجبال السوداء ؟!، هو لم يرفض الحرب في المرة الأولى إلا لخشيته مواجهة معشوقته، لا من باب رفض سفك الدماء كما يدعي ويكذب ويستغفل الشعب المُغيب أمامه،...

والآن ما الذي أعاد إليه الرغبة في سفك الدماء أحقًا تلك العرافة تُمثل خطرًا على أرضنا التي نعلم أنها أكثر بقاع الأرض قوةً وتحصينًا، المُخلص و ون ومجلس النور و الحكماء و الشعب وحتى كلينا جميعنا شياطين نستحق الهلاك لا الحياة .

هزت رأسها رفضًا وبدا الأسى والحُزن غازيًا لقسمات وجهها، أمسكت كتفي بيديها وأردفت في نبرةً حزينة وهي تنظُر لعيني :

ـ أنتِ تظلُمين الجميع وأهم من تظلمين نفسك و (ون)، هل تعلمين سبب قيادة (ون) لمعركة الرمال ولما فعل ما فعل برجالها ؟! .

لم افهم كلماتها لكنها بدت ليّ تعلم شيئًا لا أعلمه فأومأت لها برأسي رفضًا فتابعت حديثها :

ـ (سيلا) قدُمت إلينا على يد (ون) وكانت من أهل مملكة الرمال، كانت سيلا تُعاني مرارةّ العيش بأرض الرمال طوال حياتها، هل تتخيلي أن يُقدمها أبيها بيده للجنود يغتصبونها مُقابل وجبة طعام واحدة في اليوم، هل تعلمِ أن (ون) قاد تلك المعركة فقط من أجل روحها؟!، هو نقيّ القلب ويرفض الظلم و عشقه لسيلا هو ما يُبقيه حيًّ، الحق أني لا أعلم لمَّ قرر قيادة الجيش والذهاب في تلك الحرب لكن يقيني أنه لن يظلم أحدًا، ثقي في قلبه يا (روفان) كما أثقُ به واتبعيه ولا تخافي فهو لن يخذُلك فمن ذاق حسرة الخذُلان لا يُمكنه إذاقة مرارة تلك الحسرة لغيره .

انتهت من حديثها وانسحبت في حُزنٍ بالغ لم اعلم مصدره، شعُرت أنها لا تملك طاقةً للوقوف أمامي أكثر أو الحديث أو حتى التنفس، تلك الفتاة دومًا ما كانت لُغزٍ بالنسبة ليّ لم أتمكن من فك طلاسمه، دفاعها مُستميت عن (ون) وكل ما يُذكر اسمه يتبدل حالها تمامًا، رحلت ولم أرحل من موقعي حتى الصباح، زاد صخب أرض النور وضجيجها واستدعاني الحُراس للانضمام لموكب الحرب، اندفعت إلى الساحة فكان الجميع مُتأهبًا في ملابس الحرب، اقتربت من (ون) وهو يُشرف على العرض، نظر إليّ في تعجُب وأردف :

ـ نائبة قائد الجيش ونتأخرين!، أين كانت القائدة القوية ؟! .

نظرت لعينيه بثقة وأردفت :

ـ كُنت أستعد للمعركة فهل يُمكن أن أندفع لمعركتي الأولى بدون الاستعداد اللازم .

ابتسم وأجابني :

ـ أطلقي الأمر للجيش ليتوجه الجميع إلى (إليانور) .

امتطيت حصاني وأخذت موقعي على يمين (ون) وأشرنا بالتحرك، تحرك الجيش ونحن نتقدمه على وقع دقات الطبول في الصف الأول خلفنا تتبعنا فرق الأحصنة، تتبعهم فرق الرُماة و

مشاة الجيش، انتقل إليّ هذا الزهو والفخر الذي يُسيطر على (ون) من رفع هامته والإحساس بالقوة، حقًا نحنُ نقود أقوى جيوش الأرض و تهتز الأرض لوقع أقدامهم ونظامهم المحكم..

هذا الجيش خلفي أعلم أدق تفاصيله، تكمُن عظمته في حمايته لكُل فردٍ فيه وبسالته في المعارك، هذا الجيش خلفي لن يستسلم أو يتراجع حتى يُفنيّ أعدائه وهذا هو سبب معاناتي طوال ليلتي..

أتمنى أن أنجح في خِطتي لأنجو بنفسي والبشر من هذا العذاب،

وصل زحفُ الجيش إلى أبواب الأرض وفتحت البوابات قُبيل شروق الشمس

دلف الجميع إلى الأهرامات الثلاثة الذهبية، كُنت في بادئ الأمر أظُن أن أرض النور تمتلك (إليانور) واحدة حتى علمت أنهم ثلاثة بنفس الاسم وها هم يصطفون على الجانب الآخر للنهر، عبر الجميع النهر بالمراكب ومع شروق الشمس

كُنت لجوار (ون) بغرفة قيادة إليانور وبدأنا التحرُك، لم أنطق بكلمةً واحدة طوال الرحلة باستثناء الأوامر للجنود وتنظيم التتابع الزمني بين (إليانور) لنصل في تزامن عند سفح الجبل الأبيض، وصلنا في موعدنا تمامًا قُبيل الظهيرة، بدأ الجيش الهبوط والاستعداد على مقربةٍ من طريق الجبل الأبيض..

اصطف الجيش تمامًا وبدأنا الحركة تجاه ممر الجبل، لاح أمامنا على مرمى البصر ما دفع (ون) لإعطاء الإشارة للجيش بالتوقف!، كان مدخل الممر مُغلق ببوابة حديدية كبيرة ويعلو قمم الجبل جنودٌ يقفون خلف صخورًا كبيرة يتأهبون لدفعها من أعلى لتهشيم من يقترب من الجبل!، نظر إليّ (ون) وأردف في قلقٍ مصحوب بالدهشة :

ـ يبدو أننا نواجه خطرًا حقيقي و تلك العرافة تمتلك فكرًا وتنظيمًا قوي !، ما رأيُك وما الحل ؟ .

أجبتهُ بقوة :

ـ هل رأيت العرافة ؟! .

ـ قطعًا لم أرها وكيف ليّ أن أراها ؟! .

ـ إذًا فلنراها ونكتشف قوة تلك الأرض وقوة تلك العرافة، وبعدها نُقرر ما علينا فعله حتى لا ندفع الجيش للهلاك .

تحمس كثيرًا لفكرتي وأردف بقوة :

ـ فكرةً رائعة ولكن كيف نُنفذها .

ـ لديّ خُطة، لا تقلق .

هبطت من على حصاني وأصدرت الأمر للجيش بأن يُعسكر حتى أذهب مع السيد(ون) لنكتشف الجبل، بدأ الجيش في عسكرته وتحركت مع (ون) تجاه الجبل على أقدامنا، سألني في قلق :

ـ ما هي خُطتك فقد يُهاجمونا بإلقاء الأحجار علينا من أعلى قبل أن نصل إليهم! .

نظرت لهُ وأجبته بثقة :

ـ لا تقلق فلقد نشأت بتلك الأرض وأعلم كيف ندخُل إليها .

اقتربنا من السور فرفعت صوتي بقوة ليسمعه الواقفون أعلى البوابة والجبال قائلة :

ـ أنا روفان ابنة مهاب وحفيدة (زهرة)، أخبروا قائدكم أنِ أُريد لقاء العرافة .

أصابت (ون) الدهشة وهمس في أُذني :

ـ هل تلك هي خُطتك؟!، إن كانت هي فأتوقع أن يُلقوا علينا أحجارهم فنعود للجيش لهثًا دون الوصول لجديد .

نظرت له بثبات وأجبته :

ـ سوف تُفتح البوابة ونُستقبل بترحابٍ شديد، أخبرتك ألا تقلق .

ـ لا اعلم من أين لكِ بتلك الثقة، فلنرى ما سوف يحدُث .

صدر صريرٌ قوي من البوابة على وقعِ أخر كلماته ليّ، فُتح بابٌ صغير بالبوابة الكبيرة، خرج منه رجُلاً يحمل سيفًا حديدي على

خصره ودرعٌ خشبي مُطعم بالحديد في يده، ما أن وقعت عينهُ عليّ حتى اندفع في ركضه إلينا صارخًا مُتهللاً :

ـ روفان!، لقد عادت صغيرتنا .

هرولت تجاهه أحتضنه وأنا أصرُخ :

ـ السيد (خوان)، كيف حالك وحال أبي وأمي وجدتي ؟!، خُذني إليهم فورًا أُريد رؤيتهم فأنا أشتاق إليهم كثيرًا .

تبدلت ملامحه فجأةً واضطرب بقوة وأجابني :

ـ جميعهم بخير، هيَّ بنا لأصحبُكِ إليهم .

ـ معي صديقٌ هل من الممكن أن يأتي معيّ ؟ .

ـ بالتأكيد كُل من تُريدين لهُ التقدم فليتقدم، اليوم عيدٌ لمستعمرة العجوز واحتفالاتٍ لا تنتهي بعودة أميرتهم .

أشارت للسيد (ون) فتبعني في ذهول، همس في أُذني ونحنُ نتقدم في عبورنا البوابة :

ـ يبدو أن نائبتي أقوى من ما أتخيل .

تقدمنا في ممر الجبل فكان المشهد عجيبًا، يصطف البشر بأسلحتهم ويقف كثيرون على قمم الجبال و تتزين جُدران الطريق بقناديلٍ حديدية مُضيئةً بالنار، فسألت (خوان) في دهشة :

ـ ما الذي حدث في غيابِ وكيف تطورت المستعمرة بهذا الشكل ومن أين توصلتم لتلك الأسلحة والمباني و هذا الضوء ؟! .

ـ العرافة هي صاحبة الفضل الوحيد في كُل ما ترين، سوف أسرُد عليكِ كُل شيئًا ونحنُ في الطريق إلى المستعمرة .

بدأ سرده مُنذ نبوءة جدتي بمقتل (كامي)، وكيف تطور كُل شيئًا بشكلٍ سريعٌ للغاية...

حتى تلك النبوءة الخاصة بالقناديل المشتعلة بالنار وأنها قد تُعطي قليلاً من الحياة بضوئها وحرارتها للغابات الميتة، ونجحت الفكرة وغزت القناديل الغابات تُضيئها فدبت الحياة بالأشجار والنباتات من جديد، رُغم أن هذه الحياة بسيطةً وضعيفة ولم تُعد للغابات حياة نور الشمس ولكن من كان يحلُم بوجود أملٍ ولو ضعيف...

أصابتني كلماته بالذهول والزهو من ما وصل لهُ أبي وأمي وجدتي، إذًا فنبوءة جدتي ليّ ستتحقق كما تحققت كُل نبوءاتها وبالتأكيد سوف تنجح خُطتي، عبرنا الغابة وبدت لنا المستعمرة، كان جميع أهل المستعمرةّ يقفون أمامها وفي الساحة ينتظرون قدومي بعد أن أرسل لهم السيد (خوان) الخبر لإعلامهم بالأمر، تقدمتُ من البوابة وعيوني لا تتوقف عن التفتيش عن أمي وأبي و جدتي، حتى وقعت عيني على أمي تقف بمنتصف الساحة تنتظرني تقبضُ بيدها على فأسها الحديدي، ركضتُ إليها وأنا أصرُخ فرحًا

تكادُ روحي تخرُج من صدري لأرتمي بأحضانها، سقطنا أرضًا ونحن نُقبل بعضنا كانت أشواقنا وحرارة لقاءنا اكبر من أن تحتويها كلمات أو قُبلات أو حتى تمرُغنا أرضًا فرحةً باللقاء، لم نتوقف عن الصُراخ والبكاء للحظة حتى أُنهكنا، فجلسنا أرضًا لا نكترث للحشود التي تُشاهد فصرختُ بأمي سائلة :

ـ أين زهرتي و مُهابي .

لم أنتظر إجابتها وانتفضت أفتش عنهم، وقعت عيني على جدتي تبكي على باب منزلنا فحسبتُها تبكي من الفرح للقاء ولم أكُن أعلم أنها تبكي لمَّ سوف يقتلُني بعد لحظات، هرولت تجاهها أدفنُ رأسي بصدرها وأحتضنها بحرارة أشواقٍ لها طوال ثلاثة أعوام، رفعت يدها وأنا بصدرها تُشير للجميع، ساد الصمت و لم يعود سوى صوتِ، هدأت الرياح وتأهبت الأرض وتهذبت لفجيعتي التي خرجت من فمُ جدتي وهي تُخرجني من صدرها :

ـ تسألين مُنذُ وصلتِ عن والدُكِ، لن يُخبركِ أحدًا الحقيقة غيري؛ لقد قُتل مهاب على يد جنود نهاش في رحلة عودته بعد أن أوصلكِ لأرض النور، وكنتُ أعلم أن هذا سيحدُث وتركته؛ لقد ضحى أبيكِ بروحه و ضحيت أنا وأمك بكُل شيئًا نملُكه في الكون حتى تكونين ما أنت عليه اليوم ونحنُ على استعداد للتضحية بأرواحنا من أجلك ثانيةً، لكن هؤلاء الضعفاء لا أملكُ حق التضحية بهم، فها أنا وأُمك أمامك جاهزتين للتضحية .

أصابتني كلماتها بحالةٍ عجيبة من الاضطراب والتخبُط، مزيجًا من الحزن والقهر والخيبة ولغُبن فتراجعت للخلف أترنح أتمسك بتلابيب الفراغ أجاهد السقوط

اندفع تجاهي (ون) يلتقمني من الخلف يمنعني السقوط، دفعته للابتعاد عني لأسقُط فكم تمنيت لو سقطتْ آلاف المرات حتى تتهشم رأسي وعظامي وتتمزق روحي فأرحل إلى حبيب روحي المقتول، كُنتُ أحسب أني تعيسةٌ بالأمس وأقضي ليلةً في الجحيم، أما الآن فتأكدت أني بقعر الجحيم ولا أمل ليّ في النجاة، ما عساي أن افعل الآن فلا طاقة ليّ لتحمُل فراق من رحل ولا قُدرة ليّ على التضحية بمن بقي

دار كل ذلك بعقلي في لحظات سقوطي فما أن سقطت حتى انفجرت جُدران حنجرتي لتُحرر صرخات وجعي وقهري المكبوتة بصدري، لتنفجر معها السدود الحصينة التي تمنع انهار الدموع الحبيسة بعيوني، اقتربت مني أمي تحتضنني وهي تصرخ من الوجع ونحنُ راكعتان أرضًا، تقدمت جدتي بثبات تجاه (ون) وأردفت إليه بنبرةً قوية :

ـ هل ما زلت على مُعتقدك أنت ومُخلصك بأن الجميع خارج أسواركم يستحق الموت والفناء ؟!، لا تُجيبني فأنا أعلم الإجابة واعلم لمَّ خرجت على رأس جيشك وستنال مُرادك ويقتُلك المُخلص، لكن إن كان قرارك نهائي فلتجعل لنهايتك معنى .

نظر لها بقوة وأجابها بغضبٍ شديد :

ـ من أين لك بمعرفة ما يدور برأسي ومن أين لكِ بمعرفة ما سوف يحدُث، لن ينطلي على كذبُك .

هزت رأسها إيجابًا وأردفت بقوة :

ـ الآن أُبرهن لك أني لا أكذب وأني أعلم ما يدور برأسك، فقط استمع لنبوءتي جيدًا .

أغمضت عيناها للحظات ثُم أسهبت في الحديث، تدافع الجميع في مشهدًا مُزري كعادة البشر، كُل من هنا لا يأبه إلا بذاته ووجهته في هذا الزحام، لم يُشغل هذا الشاب سوى تلك الفتاة التي انتهك جسدها تحرُشاً بحجة الزحام،

حتى صرخت الفتاة ألماً وقهراً من شدة الألم النفسي والجسدي، كنت أتابع بصمتٍ وبدقة ولا أريدك أن تحتقرني لأني لم أمُد لها يد العون فإن لي دوراً أشد خطورة وأهمية من نجدة تلك الفتاة من بين براثن هذا المريض وفي كل الأحوال تيقن أني لن أمرر الأمر والقصاص قادم لا محالة

و في منتصف عربة القطار اشتد الأمر أكثر دنية ولم يستطيع هذا الجمع الغفير من البشر منع هذا الشاب من البطش بذلك الرجل وامرأته وأطفاله حينما رجاه الرجل أن يُفسح لزوجته حتى

تجلس بأطفالهم ويظل الرجل واقفاً!،قتلته نزعة البطش والغرور والكبرياء كيف لهذا الفسل عديم الفائدة أن يطلب مني التنحي والوقوف لجلوس عاهرته!، هذا ما صرخ به في وجهه وهو يصفعه مرةً تلو الأخرى حتى صرعه أرضاً وحينما حاولت الزوجة نجدة زوجها نالت نفس مقدار صفعاته وكل من حاول التدخل كبيراً كان أو صغيراً نال نفس الجزاء،

حقاً هذا الشاب قوي، يعجبني أمثاله بشدة فهم من يسهلون علي عملي ويشعرونني أن ما أقوم به هو قمة العدل والعدالة!،لكن ذلك المشهد لم يدفعني للتحرك!؛ لا تتعجل في حكمك عليّ يا صديقي تذكر جيداً أني لدي مهمة اجل في عظمتها من نجدة هذا الرجل وزوجته وأطفاله، لم يستطع صديقه الصمت أكثر فصرخ فيه مقاطعًا :

ـ كم أنت قاسيَّ القلب عديم الرحمة، أنا اعلم انك قادر على نجدة الجميع وأعرف ما يمكنك فعله فأنت وحدك جيشاً يتحرك حتى انك قبلة كل المتدربين هاهنا فأنت مُخلصنا ونحن تلامذتك وتابعيك فأقلنا قوة وتدريباً على يديك يمكنه وحده قتل المئات وحماية مدينةً كاملة وحده؛ فكيف تركت الأمر يمُر وأنت حاضراً ؟!، فأنا رفيقك وأعلمك جيداً لا يمكن أن تمرر الأمر ؛ ما هي مهمتك التي منعتك عن التحرك وقيدتك بهذا الشكل المزري ؟! .

هز رأسه نفياً وبدا كأن لم يسمع شيئاً ؛ نهض متحركاً تجاه سور القلعة وشرد بنظره في الغيوم وظُلمة الليل طويلاً ثم تحدث دون أن يلتفت لصديقه خلفه :

ـ يبدو أني تغيرت يا رفيقي كثيراً ؛ وقد يكُن ألم بي بعض الضعف حتى مررت عصيانك أول مرة ولكن هذا الضعف بالتأكيد لن يكون بالقدر الذي يسمح لكّ بعصياني للمرة الثانية .

لم يُنهي جملته إلا ورأس صديقه منفصلة عن رأسه تتدحرج أرضاً لتقبع تحت أقدام تلامذته الواقفون في الخلف على أثر ضربته بسيفه لرقبة صديقه وهو يستدير في نصف دائرة ليواجه تلامذته وبدن صديقه الساقط أرضاً بلا رأس .

ادخل سيفه في غُمده ورفع هامته ناظراً لساحة القلعة وتلامذته الواقفون وكأن على رؤوسهم الطير، ولمَّ لا و السيد (ون) المقتول أمامهم هو الرجل الثاني في أرض النور بأكملها وقائد جيشها وعضو مجلس النور وأقرب المُقربين للمُخلص، إن هذا المقتول هو من درب أغلب الموجودين بيديه وهو حقاً جيشاً وحده لقد درب الجميع هنا على كل أساليب القتال و القتل وطرق النجاة لقد كان ينجو من ضربات السيوف في ثواني معدودة إلا أن ما رأه الجميع إن الضربة التي قتلته واستدارة سيدهم الملثم الذي لا يعرف ملامحه أحد لم تحتاج سوى ثانيةً واحدة أو أقل؛ هو شيئاً أعجز الجميع ولم يخرجهم من صمتهم إلا صرخة (المُخلص) .

ـ ليعلم جميعكم أني لا أرحم مطلقاً ولقد كان (ون) أخلص أتباعي واقرب أصدقائي طيلة عشرةّ أعوام ولم يشفع له كل ذلك عندي كسر مبادئ أرض النور، القاعدة الرئيسية عندي لا تُخطئ فإن أخطأت لن أرحمك ولن يُنجيك مني أحد، خطأً واحد قد يُدمر تلك الأرض وكامل شعبها وهو ما لن أسمح به مهما كان الثمن .

صمت لحظات ثم عاد للحديث :

ـ نعود لمهمةّ القطار، مر عليّ الزمن طويلاً وأنا أترقب حتى تشابك شابين مع شابٌ ضعيف البنيان و أبرحاه ضرباً حتى قرروا إلقاء هذا الشاب من باب القطار وأنا أترقب من موقعي لا تصدر عني أي إشارات حتى حدث ما كنت أنتظره...أخيراً ظهر رجال تنفيذ القانون إن فعلوا ما يتوجب عليهم فعله فقد تنتهي مهمتي قبل أن تبدأ وأعود بالخيبة ولكن لا يُهمني مجدِ الشخصي فالقاعدة الثانية عندي، تحقيق الأهداف الأخيرة أهم من أي مجدٌ شخصي، حاول رجال الأمن السيطرة على الموقف ونجحوا في استخلاص الشاب من يديهم!، ثم حدث ما كنت أتوقعه بالضبط،

اخرج الشابان بطاقات يحملانها لرجال الأمن فبدأت التحيات بينهم والترحاب الشديد وحينما صرخ الشاب المظلوم مطالباً بحقه نال قدراً من اللعنات والسباب والضربات بالأحذية والبصق على وجهه كانت كافية لدفعه للصمت التام بل للموت،

لقد علمت أن الشاب توفي من موقعي، نظرة واحدة كانت كافية لأعلم انه توفي، هذا هو ما كُنا نعيشه من فساد فنحن نحيا بزمنٍ لا نعلمه كما تعلمون ولا نعلم تاريخاً دقيقاً للأحداث ولا الأسباب التي أوصلتنا إلى تلك الحالة المذرية من الفساد، أما ما نعلمه عن هذا الزمن في قصة القطار هو أنهُ كانت هنالك سلطات تتصارع على ما بقي من حضارة العالم و كُنا نجاهد في إرهاب تلك المنظمات لدفعها للعدل والعدالة بالقوة والخوف، نحن بالخوف وحده قد نُعيد لهذا العالم رشده ونعيده من هذا الجنون والفساد الذي انتشر به انتشار النار في غابات من الأشجار انقطع عنها المطر أعواماً فلم تكن تنتظر سوى عود ثقاباً واحد لتشتعل عن أخرها،

علمت بمجرد وفاة الشاب إن تلك هي الإشارة لي لأنطلق من موقعي أعلى سطح القطار المُتحرك، فتحت عينِ لأخرج من حالة التأمل و التخاطر التي سمحت لي اختراق جدران سقف القطار الحديدية ورؤية الأحداث كأني بينهم، أخرجت السيوف من جواربها ودورت أحفر بها دائرة لأهبط منها بداخل القطار..

ما إن سقطت جاثياً على رُكبتي حتى فزع الجميع محاولاً الهرب، بيد ليّ إن الإعلانات التي تُعلنها المنظمات عنا أتت ثمارها، فلقد زرعت الرهبة والفزع في قلوب كل من يرى أحدنا أو يشعر به، حتى إن الأمهات كانت تُسكت أطفالها بتخويفهم باسم ال (المُخلص)،

إن قتل كل من قابلني كان بالنسبة لي بمثابة رقصةً على ألحان معزوفة الموت، استمتعت كثيراً وأنا أرى هذا الشاب المتحرش يبول في ثيابه لمجرد رؤيتي؛ خلصته من آلامه بشطر جسده نصفين ولم أتغافل عن هذا الفتي الذي ركع يترجاني العفو عنه، يترجى الرحمة وهو لم يرحم أحداً فهل يستحقها ؟!، قطعاً يستحق قطع رأسه وهو ما ناله؛ أما رجال الأمن والشابين أدهشني محاولاتهما البائسة قتلي كما أدهشتهما وأنا أتخطى طلقاتهما وأوقفها في الهواء أمام عيونهم وأسقطها أرضاً!؛ الجميع قُتل وأفنيت القطار عن أخره حتى لم يتبقى سوى هذا الشاب الذي كان يحاول أن يُجلس زوجته و نال هو وزوجته ما قد سردته لكم في بادئ القصة، ركع تحت أقدامي وهو يتضرع إليّ قائلاً :

ـ الجميع يكرهك وقد تظن أني حاقدٌ عليك لقتلك زوجتي ومحبوبتي وأطفالي ولكن ظنك ليس صحيحاً؛ لقد خلصتهم من مرارة الألم والفقر والقهر والعيش في هذا العالم الظالم!، أترجاك أن تضمني إلى جنودك ولأُخلصَ لك ما حييت ولأفديك بحياتي فلقد أعدت إلي حياتي فلم تكن لدي جرأة قتل زوجتي وأطفالي، فهل تقبلني؟!.

توقف عن الحديث لتلامذته ونظر لهم بقوة ثم عاد لقوله :

ـ إن هذا الشاب حقاً كان مُخلصاً ليّ ولأرض النور، فلقد قبلته ولكنه لم ينسى يوماً الرحمة، فلقد كان رحيماً حتى بكم وهو يدربكم

وكان اليوم هو أخر مُهلي وصمتي عليه؛ سردت بادئ قصتي معه ولم ينتبه أنها قصته كل ما شغله هو الرحمة،القاعدة الثالثة عندي لا رحمةّ مطلقاً ؛ الشاب في قصة القطار كان (ون)، هذا العالم بالخارج لا يستحق الرحمة، تأهبوا فغدًا سوف يقع اختياري على أحدكم ليحل محله في قيادة جيش النور، وإفناء مُستعمرة العجوز و مملكة الجبال البيضاء و عرافتهم المزعومة .

أنهى كلماته وأعطاهم ظهره وهو يراقب الغيوم بينما انصرف الجمع من خلفه، رحل الجميع من خلفه لأسرتهم ولم يتخيل احدهم أو يتقبل ما حدث وكيف حدث، إن المُخلص لا يرحم ومن سوف يقع عليه الاختيار؟، كانت تلك هي أكبر مخاوف شعب أرض النور أن يقف مُخلصهم في وجه قائدهم ويُنزف أول دمٌ بأرض فيكُن أغلى دمائها!؛ انتهت من حديثها ووجهت نظرها إلى (ون) وأردفت بقوة :

ـ هذا ما سوف يحدُث عند عودتك وتلك هي قصتك مُنذُ البداية مع المُخلص أليس كذلك ؟!، بل لأُدهشك أكثر أنت لم تخرُج على رأس الجيش إلا لتنسحب به فتضع المُخلص أمام الأمر الواقع وتُقدم نفسك لأرض النور كخائن يتحتم قتله فتلحق روحك بمعشوقتك، أنا وأنت والمُخلص نفسه نعلم أن قرارك الانتحار لا تراجع عنه، فلقد ماتت روحك مُنذُ ماتت (سيلا) ولم يبقى سوى موت جسدك؛ فلتجعل لموتك هذا معنى وأخبر المُخلص أن لهُ نبوءةً عندي نصفها تحمله أنت ونصفها الآخر لن يعلمهُ غيره وحده مني .

نظر لها سائلاً بأعينُ شاخصةً مذهولة :

ـ أي نبوءةً لديكِ للمُخلص ؟! .

ـ اذهب إليه وأخبره أنهُ هو وحده الذي يُمكنه إعادة النور لهذا الكون وسوف يُعيده بمعونة (روفان) في نهاية الأربعين يومًا التي تنبأت بها، أما الجزء الآخر فلن يعلمهُ غيره .

أصابته الصدمةّ بالصمت فلم ينطق بكلمة، فعادت لحديثها :

ـ عود يا (ون) ومعك حفيدتي، القرار لك وحدك وأنت صاحبه وأنا على يقين أن قلبك المُحب لن يُخطئ الطريق .

نهضت بصعوبة مشدوهةً من حديث جدتي، تحرك (ون) مُنسحبًا في صمت يتراجع إلى الجيش خارج مملكة الجبال البيضاء فتابعته وكلانا صامتٌ يكتم وجعه بصدره حتى عُدنا إلى موقع الجيش أمام الجبل، فاستدار يواجهني وأردف بقوة :

ـ لقد تيقنت من قراري .

انتهى من جُملته وسحب سيفه .....

***

-١٠-

« قد لا نملُك تغيير النهايات مهما بلغت قوتنا ومعرفتنا؛
ولكن المؤكد أننا نملكُ حرية تغيير أقدارنا»

« البحث عن الحقيقة»
« نصلُ القدر»
« مقتل ون»

تحركنا في رحلةّ عودتنا إلى معسكر الجيش وأنا أكتُم وجعي وذهولي في صدري وحدي، لم أعود أفهم شيئًا و تمزقت روحي وأمستْ جميعُ أفكاري شتات مُتفرقات..

هل حقًا خرج (ون) على رأس الجيش لينسحب فيُجبر المُخلص على قتله ؟!، هل حقًا هو أحد الملائكة على الأرض أم شيطانٌ من أخبث شياطينها ؟!،

لقد باغتتني جدتي وأجلت خُطتي وترتيبي فهل عليّ أن أواجه المُخلص بتلك الخُطة وبهذا التدبير عوضًا عن (ون)، وجود (ون) كان سيُفيدني كثيرًا ويُخفف حدة الهجمات على خُطتي وتدبيري، هل سينجح تدبيري وخُطتي في حالة واجهت بها المُخلص وما الحل إذا فشلت وقطع المُخلص رأسي ؟!، جميعُها أفكارًا تذبح عقلي وتقودني للضياع والتيه أكثر فأكثر كُلما اقتربنا من موقع الجيش،

حتى انتزعني من تلك الحالة وصولنا واستدارت (ون) يواجهني صارخًا بأنه تيقن من قراره، و استل سيفه فجأةً وهو يرفعه لمستوى نظره يفصل بيني و بينه يخترق السيف بنظرته الثاقبة تُعريني وأردف في قوة :

ـ فور عودتنا لأرض النور سيكون لهذا السيف دورًا هامً فتذكريه جيدًا .

فرغ من حديثهُ ونظراته وهو يصرُخ أمرًا الجيش بالعودة لإليانور، لم يفهم الجنود ما سبب قراره ولم أتمكن من إجابة (جين) التي سألتني بشغفٍ للمعرفة عن سبب عودتنا وهل نعود لنُجهز قواتنا ونُنظم صفوفنا لمواجهة قوة عودنا ؟!،..

اكتفيت بكلمة رُبما و انسحابي من أمامها وكيف ليّ أخبرها بما هو قادم إن كُنتُ لا أملك تفسيرًا لما حدث بعد، تحركت الأهرام الثلاثة بالجيش وأنا أُتابع همسات وسكنات (ون) من خلفه، لم يتجرأ أحدنا على الحديث للأخر مرةً أُخرى فكُنا نكتفي بنظرات الشبق لمعرفة ما سيحدُث مني ونظرات الثقة التي لا أعلمُ مصدرها منهُ، كلانا يعلم أن المخلص لن يرحم مُتخاذلٍ ويقينُنا أنه يعلم أدق تفاصيل ما حدث، فلا هرب ليّ من بطشهً ولا لهُ من نصلُ سيفه،..

يذبحُني الخوف من القادم وتمُر عليّ الساعات كآلاف الأعوام من الانتظار المُميت، وصلنا أخيرًا على ضفةّ النهر وعبر الجيش تجاه أرض النور، عبرنا من البوابة في عرضٍ كامل للجيش كما خرجنا منها على دقات الطبول، لكننا خرجنا من تلك الأرض في نور الشروق ونعود إليها على شفا الغروب، وصلنا لساحة النور وكما كُنتُ أظن وأتوقع كان جميع من بقيّ ينتظرنا بما فيهم المُخلص والحكماء وأعضاء مجلس النور في ساحة الأعمدة، ترجل (ون) عن حصانه فتبعته خلفه نترجل الخطوات القليلة إلى وسط ساحة موتنا المُحاطة بأعمدة الجحيم أُحافظ على مسافة بيني وبينه، تقدمتُ مطأطأة الرأس عكس قائدي الذي تقدم فيً زهوٍ بالغ يرفع هامته حتى كادت تخرق السماء !، توقف ون بمُنتصف الساحة ينظُر للمُخلص وتحدث على لحنُ الغروب فخرجت نبرته وكلماته نغمات حزينة :

ـ الآن وقد عودت بجيش النور مُنسحبًا لم يعود لك سوى قتلي؛ فعجل بها عل روحي تستريح .

انفجر الحكماء وأعضاء المجلس على يمين المُخلص ويساره غضبًا يصرخون باتهامات الخيانة وحتميةّ مُعاقبةّ خائن أرضه، قطع الصرخات و الهمهمات بين الجموع صرخةّ المُخلص ونهوضه قائلاً :

ـ لا يرفع أحدكم صوته في حضوري،لا صوت يعلو على صوت مبادئ وتعاليم أرض النور التي خططتها بيدي .

عم الصمت والهدوء أركان أرض النور جميُعها، حتى الرياح سكنت فلم يعود هنالك غير المُخلص وصوته، تحرك تجاه (ون) وقف يواجهه وأطبق بيديه على تلابيبه وصرخ فيه :

ـ لمَّ فعلت ذلك ؟!، أنا من صنعك وجعلك ما أنت عليه فيكون جزائي منك الخيانة و هذا الجحود والنكران!، آلاف المرات وأنا أحاول تغيير نهايتك وأنت تُصر عليها ألم أُحذرك (الحب) وأُعلمك أنهُ مُهلكك فلا تقربه، لمَّ فعلت بي وبنفسك كُل ذلك؟!، لمَّ عصيتني ؟! .

انفجرت دموع (ون) واختلط حديثه بالحسرة والمرارة والدمع وأجابه راكعًا على رُكبتيه :

ـ أمرتني فأطعتك فيما أملُك وأنت تعلم أنِ أخلصهم إليك، لكنك تأمُرني بطاعتك فيما لا أملُك فعصيتك، متى كانت القلوب لها طاعة مع الحُب و لا تتهمني بأنِ لم أُحبك فأنت تعلم أنك كوني وأنفاسي، تضرعتُ لك أن تنهي وجعي وآلامي مرات ومرات، قتلتني الحسرات والخيبات وكان أعظمها أنِ شعُرت أنك لا تهتم لأمري ولقلبي فتحتم عليّ إجبارك إنهاء وجعي، لكنك تعلم أنِ أُحبك ولا يُشاركك أحدًا في قلبي مقدار عشقُك فقط أنهي ما صنعتهُ بيديك لأستريح من عذاب روحي بصبُك وقلبي بعشقُها فإني شتاتٌ يحتاج لأن يلتئم على نصل قدرك .

تراجع للخلف ونزع قناعه فبدت ملامحه لأول مرةً، وجهًا طويل وبشرةً خمرية و أعينً مُتسعة بنية اللون مُغرورقتين بالدمع يجري على وجنتيه أنهارًا وملامح القهر تغزو كامل قسماته وأجابه بنبرةٍ تُشبه غروب الشمس :

ـ وهل تظن أنِ لم أسمع أنينك و لم أتألم لتضرُعاتك ليّ وأنت تسألني قتلك؟!، ما منعتُ عنك سيفي إلا لحُبك وما تقبلت كُل أخطائك ومعاصيك وتحديك إلا لترضى نفسك التي أشعل الحب الجشع فيها فأمست لا تشبع، أنت لم ولن تفهم فبرُغم علمي بتوقيت نهايتك من بادئ الأمر إلا أنِ أردتك أن تُبدلها بيدك ولم أترُكك وحدك و بدلت لك الأحداث مراتٍ ومرات وكنت في كُل مرة لا ترى سوى ظلام وجع قلبك، أما الآن فإن تحتمت نهايتك وكان الموت خلاصك فلن تكون تلك النهاية على نصل سيفي إلا لأني أُحبك، خُط قدرك بنصلك لا بنصل غيرك فالقرار لك من بادئ الأمر لكنك لم ترى .

أجابهُ وهو راكعًا ولم تتوقف دموعه عن جريانها على وجنتيه :

ـ لم تكذب العرافة، النهاية واحدة وإن اختلفت أسبابُها، وإن تحتمت نهايتي فيجب أن يكون لها معنى، أخبرتني العرافة أنك وحدك من سيعُيد النور والأمل لهذا الكون بنهاية الأربعون بمعونة (روفان) فلا تخذل البشر كما خذلني قلبي، اذهب إلي العرافة فإن

لها نبوءةً لك فلا تتردد وإن كانت النهاية محتومة فالجميع يعلم أنك تستطيع تغير الكثير من الأحداث ونجدة ألاف الأرواح من الهلاك .

انتهى من كلماته واستل سيفه في سُرعة خاطفة يدفنه بكلتا يديه في صدره، هرولت تجاهه فسبقني المُخلص يحتضنه راكعًا وهو يصرُخ باكيًا من ألم الفراق، لم تكن صرخاته أقوى من صرخات (جين) التي اندفعت تحتضنه وهي تجأر ألم الفراق ووجع الرحيل و ثارت دموعها تتفجر على وجنتيها كحمم بركان من القهر وجد طريقهُ للعدالة، نظر لها بأعينُ أوشكت على الغروب ونبرة كادت تنقطع لفظ لها أخر أنفاسه :

ـ أنا أشعُر بما تعانين من ألم فلقد مررتُ بيه قبلُك، لكن متى كان لنا على قلوبنا سُلطان ولو أن ليّ على قلبِ حُكمًا لما أحببتُ غيرك .

اجتاحني الألم والفزع من هول ما أرى فوقفت عاجزة عن الحراك والتنفس وهو يلفظ أخر أنفاسه بين يدي (جين) والمُخلص؛ انتزع كامل أهل الأرض من حالتهم صرخات وأهات المُخلص وهو يرُج جثة (ون) بين يده، لم أسمع يومًا أحدهم يصرُخ ألمًا مثلما صرخ، أظلم الكون وانتهت الحياة وتداعت أعمدة الأرض بأكملها من صرخاته وقهره وفزعه وغضبته؛ انتصب واقفًا في لحظة ساحبًا سيفه لأجد نصله على عُنقي وهو يصرُخ فيّ :

ـ أنتِ أيتُها الحيةُّ الملعونة وجدتك الخبيثة من قتلاه وأذاقني مرارةّ وحسرةّ الفراق وظُلمات القهر والعجز عن نجدةّ من أُحب، وإنِ لأجعلُكِ تتجرعين كأس مرارةّ الحسرة والقهر والفراق بيدك؛ لكِ الأمر بقيادة الجيش وإنابة قائدك في إفناء مملكة الجبال البيضاء وإحضار رأس العرافة وابنتها أسفل أقدامي؛ وإنِ أتمنى أن ترفُضين رغم علمي أنك ستقبلين لأقتطع رأس الحية لا ذيلُها ولكنِ أعدُك أنكِ أنتِ وجميع أحبائكِ مقتولين في النهاية مهما تبدلت الأحداث، فما قرارُكِ ؟ .

لا أعلم من أين أتتني تلك القوة والثبات و أنا أُجيبه بُخطتي كما دبرتُها، رفعت رأسي أوجه إليه نظري وأجبته بقوةٍّ لا أملكُها وبنبرةٍّ تسمعها أرض النور بأكملها :

ـ وإنِ مُطيعةٌّ لأمر مُخلص الأرض ومُخلصي وفيةٌّ لتعاليم أرض النور .

أنزل سيفه منِ على عُنقي وهو يهُز رأسه رفضًا بجنون، كُنت على يقين من أنهُ يعلم ما سوف أقول وحاول مئات بل آلاف المرات إثنائي فعجز حتى استسلم وهو الآن يُعطيني ظهره ويعلم أن نصل حديثي سيخترق قلبه، فتابعت كلِماتي بقوة :

ـ ولكن هل أنت حقًا مُخلص أرض النور من الظلام ومُخلص شعبنا من الظُلم ليكون لك علينا الطاعة؟!، كيف وقد عجزت عن

تخليص أقرب البشر إليك من آلامه حتى قدم روحه قُربان أسفل أقدامك ؟!، كيف لك أن تكون مُخلصنا ومُنشئ مبادئنا وقد عجزت عن تطبيقها لمرتين أمام أعيُننا وعلى مسامع كامل شعب النور، لا صوت يعلو على صوت المبادئ وأهمها (الحقيقة)، أنت تُخفي علينا حقيقتك وحقيقة أرض النور وسرها ولما وحدها ترى الشمس؟!، ولما لا تكون أنت من دبر كُل ذلك الشر والظلام لكامل الكون وتخدعنا ؟!،... كيف تُريد منا إفناء البشر بالخارج لأنهم لا يستحقون الحياة ومستسلمين للظلم والظلام وقد نهضوا الآن يواجهون ظُلمك لهم وتمييزك لنا عنهم وهو ضد مبادئ المساواة بأرضنا ؟!، كيف لك أن تطلُب منا مخالفة كُل مبادئنا فقط لأنك تُريد إخفاء الحقيقة، لا صوت يعلو على صوت الحقيقة ليكون لك علينا الطاعة، نُريد معرفة حقيقتك وحقيقة أرض النور وحقيقة دعوتك ودليلُك بأن البشر خارج أرضنا يستحقون الموت وبدون تلك الحقائق الثلاث لا طاعة لك علينا، نُريد الحقيقة .

انتهيت من كلِماتِ وأنا أصرُخ بلفظ الحقيقة وصار الجيش يجأرُ خلفي بها!، اشتعلت ثورة الحقيقة وأصابت سيوفها قلبه فوقف يتخبط مشدوهًا من هول الثورة التي لم يحلم أن تصل لهُ يومًا، كانت نظراته ملئُها القهر والحسرة والخيبة وهو يبحث في الوجوه الغاضبة الصارخة حوله عن من يدعمه، حتى الحكماء وأعضاء مجلس النور نهضوا يؤيدون الثورة!، صرخ الحكماء وأعضاء مجلس النور في لسانٌ واحد :

ـ أصابت القائدة ولا صوت يعلو على صوت الحقيقة، لا طاعةَّ لك علينا حتى تُقدم الحقيقة كاملة غير منقوصة .

صمتت الأرض بأكملها وتوجهت الأنظار إلى المُخلص وهو يتخبط في حركاته، اندفع إلى أحد أعضاء المجلس وقبض على تلابيبه وأردف في جنون :

ـ أيةّ حقيقة ألا تكفيك حقيقة تصدي للحربة التي كادت تُفتك بقلبك في معركة النور الأولى حينما سقط درعك ؟! .

هرول لأخر و أردف :

ـ وأنت ألم أُمسك بيدك أمنعك الموت غرقًا في هذا النهر ؟! .

هرول تجاه (جين) الراكعة لجوار جُثة (ون) وأردف :

ـ وأنتِ ألا تكفيكِ حقيقةّ أني من خلصك من بين أنياب وحش الغابةّ المظلمة ؟! .

نهض واقفًا وصرخ في جنون وهو يُشير بيده لجميع أهل الأرض وهو يدور حول نفسه :

ـ ألا تكفيكم حقيقة أنِ من علمكم كيف تتنفسون، أني من علمكم الحياة، أنا معلمتكم العزة والكرامة والحقيقة يوم كُنتم أذلاء تحت براثن الاستعباد فهذا هو جزائي منكم .

صمت للحظات ثُم رفع رأسه وأردف في قوة تبدلت لها ملامحه كأنما لم يُصيبه شيئًا من الألم :

ـ انتم طلبتُم الحقيقة وسوف تنالونها، وأما الطاعةّ فستكون ليّ كما كانت من البداية .

وجه نظرهُ ليّ و نصل سيفه وتابع حديثهُ بذات القوة :

ـ أنتِ تطلُبين الحقيقة وستنالينها وتنقلينها لكامل أرض النور بل للكون بأكمله، ولكن على طريقتي وبقواعدي، سأدعك تري بعينك كُل شيئًا وأترُك الحكم لكِ إن كُنت مُخلص الأرض من الظلام أم جالبه، ولن أقتُلكِ فِي النهاية سأجعلكِ تذوقين مرارة الحسرة وأنتِ تذبحين أحبابكِ بنصل سيفك بعد معرفتك الحقيقة، فهل تقبلين ؟! .

أفزعتني كلماته وصرت أجاهد إخفاء الرعشة التي أصابتني من حديثه ونظراته الواثقة، أجبته بقوة وثبات أجهدني للغاية ادعائه حتى تخرج نبرتي متزنة :

ـ بالتأكيد أقبل، وسأخوض الأمر معك من أجل كامل الكون وليس أرض النور فحسب وأقبل قواعدك ولكن لن أتحرك قبل تنفيذ أخر وصايا قائدي السيد (ون)، عليك الذهاب للعرافة والحصول على نبوءتك .

هز رأسه إيجابًا وأجابني ساخرًا :

ـ بالتأكيد سنذهب سويًا وحالاً وأتمنى أن تتحلي بالشجاعة بعدها لتقولي أمام هذه الحشود أنكِ ستُكملين الرحلة معي .

أنهى كلماته واقترب مني، احتضنني بيُسراه في صدره، شعُرت أن جسده يملك دفئ الشمس وحنان الكون بأكمله و سمعت دقات قلبه التي تصرُخ حُزنًا وهو يُطبق قبضته اليُمنى على طرف سوارًا ذهبيًا على ساعده الأيمن لم المح تفاصيله، لم تمُر لحظات حتى وجدتني بصدره في ساحة مُستعمرة العجوز أقف وسط جمعٍ غفير من البشر، كانت تقف جدتي لجوارها أمي كأنهم يعلمون بقدومنا، ابتعد عني وتوجه يواجه جدتي وأمي لجوارها يُحافظ على مسافةً بينهما، وجه حديثه لجدتي قائلاً في غضب :

ـ يا لكِ من امرأةً كاذبة مُخادعة، تكذبين وتصدقين كذبُك وتدفعين هؤلاء البشر لتصديقه وتصديقك، حقًا أمر البشر عجيب ؟! .

نهضت جدتي واقتربت منهُ وأجابته بقوة :

ـ قد أكون مُخادعة لكنك تعلم جيدًا أني لستُ كاذبة خاصةً فيما يتعلقُ بك .

تعالت ضحكاته الساخرة وأردف في صوتٍ مسموع :

ـ هل تظنين إني بغباء من حولك لأُصدقك، فكلانا يعلم أنكِ لم ترِ نبوءةّ ثورة وأنكِ من خدع هؤلاء البشر بنبوءةًّ كاذبة لتتمكني من السيطرة عليهم، فكيف تدعين الصدق وتطلُبين مني أن أُصدقك؟! .

صعقتني كلماته لجدتي كما صعقت جميع الواقفين وتوجهت جميع الأنظار لها، فأجابته بثباتٍ عجيب :

ـ لا أُنكر إني من دبر الثورة على رجال نهاش وأنها لم تكُن نبوءةًّ بالمستقبل، ولا أُنكر أني من دبر كُل ما تراه من تقدمٍ ولوٍ بسيط، نعم فعلتُ ذلك لأحشد الرجال حولي وأكون جيشًا يدعم (روفان) وندفعك لإعادة النور للأرض، لم أدعي أني ملاك فلا ملائكة على الأرض وجميعُنا بداخله شيئًا من الشر والخُبث وحُب السيطرة؛ ولكن هل تُنكر أنت أن نبوءتي بعودة النور حقيقية ؟!، وأنك رأيتها بعينك ولكنك لم تكتشف الطريق لتنفيذها بعد ؟!، لن يُعينك على اكتشاف الطريق للنور سوى (روفان)؛ و لا يهُمني إنكارك أو تصديقك ولكنِ سأدفعُك للعذاب دفعًا بالنصف الأخر من نبوءة النور لتتعذب بهِ وحدك .

انتهت من كلماتها واقتربت من أُذنه وهمست فيها بشيئًا، دفعه للجنون وتبدلت ملامحه واستدار يواجهني بنظراته التي كادت تخترقني، ثم استدار لها يواجهها و تحدث في صرخات غضبية كمن مسه الجنون :

ـ أعدُك أن تشربي من مرارة ذات الكأس وأعدُكِ ذبحك أنتِ وابنتك على نصل سيف حفيدتك و ذبحي لها لتلحق بكما هي وكامل من حولك بل لأُسخر الأرض بأكملها لإفناء كُل من يحيا خارج أسوار أرض النور فأن اخطأت بتركك جميعا في الماضي فلن اكرر خطأي في المستقبل.

اقترب مني يحتضنني بيُسراه لنستعد للعودة لأرض النور، استدار بوجهه ينظر لجدتي وأمي وأردف في ثبات :

ـ فلتهتفوا لها قدر ما أمكنكم لكنها لن تنصركم فسيكون الخُذلان مصيرها ومصيركم جميعًا .

لم أشعر إلا وأنا أقف في ساحة الأعمدة أمام الحشود الثائرة، كانت الرحلتين ذهابًا وعودة للمستعمرة كالحُلم لم تستغرق سوى لحظات، لقد عُدنا لذات الزمن الذي سبق احتضانه ليّ، نظر ليّ ووجه حديثه إليّ سائلاً :

ـ بعد زيارتنا للعرافةَّ هل ماتزالين على قرارك بالتقدم في ثورتك ؟! .

أجبته بغضبٍ وحقد من غروره الذي كُنت أشعر أنه يملئه ويخنُق روحه الدافئة التي لا مستُها في رحلة المستعمرة :

ـ بالتأكيد على قراري ولن أتراجع عن الحقيقة .

أجابني بصوتٍ مسموع للجميع :

ـ إذًا فلتستعد الأرض لرحلةّ الحقيقة .

أنهى جملته وأشار ليّ إتباعه، اندفع يتحرك في ثبات تجاه بوابة المدينة السرية وأنا خلفه، توجه لممر النور فعبرناه، ثم ساحة قدس الأقداس حتى توقف أمام بوابة قدس الأقداس فنظر ليّ و أردف في قوة :

ـ الآن أفتحُ لكِ عيناكِ على الحقيقة ولكن انتبهي جيدًا فالحقيقة دومًا صادمة ومؤلمة ورحلتك إليها لن تكون سهلةً وسوف تحتاج شجاعةً وقوة أتمنى أن لا تكوني تملكينها فكم اتمنى لك الهلاك بل سأسعى إليه .

شردتُ للحظات في وجهه وكلِماته التي ألهبت الحماس والشبق للمعرفة ما بداخلي، إلا أن شرودي كان من قسمات وجهه الحزينة، استعمر القهر وجهه بشكلاً غريبًا وهو ينظُر إليّ، لا أعلم لما غزت روحي آلامه وأوجاعه التي اجهلها فأصبحت أشفق عليه؛ فتح باب قُدس الأقداس لتنفتح معهُ عيناي على اتساعها من الذهول لمَّ أرى .....

***

يتبعُ

اتوجه بخالص الشكر والتقدير لكُل من ألهمني ولولا وجوده فقط ماخرج هذا العمل بتلك الكيفية

«أبي وأمي ، دومًا ما أردت إخباركما بأنكما الشمس والقمر في حياتي فلا غاب عني ضوءكما ولا دفئ وجودكما بحياتي ما دمت حيًّ.

«لجنة قراءة الرواية من الشباب وهن» مايا هيثم؛إيمان منصور؛ فاطمة محمد؛ نورهان مجدي؛ نورين أشرف؛ سهيلة يسري؛ زينب علي»

***

السيرة الذاتية للكاتب

• باسم زكي / كاتب مصري .. حاصل على درجة البكالوريوس من كلية الإعلام جامعة القاهرة ؛ يكتب الروايات مُنذُ عام ٢٠١٠ .. له العديد من الأعمال وصدر له منها بعام ٢٠١٩ :

• رواية ((كوما)) .

• رواية ((الجَبيرة)) .

• رواية ((المُخلّص)) .

الأعمال التي نُشرت إلكتروني و التي لم تُنشر بعد :

• سلسلة ((بارانورمال)) .. تصدر الكتروني .

• رواية ((أبواب جهنم)) .

• رواية ((صرخة شام)) .

• رواية ((درويش بن بركة)) .

• رواية ((الساحر والإمام / العهود السليمانية)) .

• رواية ((الساحر والإمام / مجلس العشرة)) .

• رواية ((الساحر والإمام / التيجان السبعة)) .

• رواية ((المرزبان)) .

• رواية ((جبريل)) .

***